الصحوة .. وهموم الوطن العربى والإسلامى

تحليل وتفصيل

OBEIKAN.COM

OBEIKAN.COM

١ - هَمُّ التخلف

إن أول همومنا العربية والإسلامية ، الذى لا يختلف فيه اثنان هو هم التخلف المزرى الذى ما زالت أمتنا ترزح تحت نيره الثقيل والذى صنف وطننا كله فى دائرة ما سموه (العالم الثالث) أو (البلاد النامية) .

ونعنى بالتخلف : أننا لا زلنا عالة على غيرنا فى دنيا العلم التجريبى والتكنولوجيا الحديثة . حتى أن نصف ما نأكله أو أكثر لا نزرعه ، وجل ما نستعمله لا نصنعه !

وحتى السلاح الذى ندافع به عن أرضنا وعرضنا لم يزل صناعة أجنبية . نستورده ولا ننشئه ! .

إن من المحزن حقًا ، أن تكون بلادنا زراعية ، ولا نحقق لأنفسنا الغذاء الكافى . وإن من المخجل أن مناطق من فلسطين ظلت بأيدينا زمنًا طويلاً صحراء قاحلة ، فلما استولت عليها إسرائيل حولتها إلى واحة خضراء !

أما تخلفنا الصناعى فحدث عنه ولا حرج .. نستورد فى كثير من بلادنا من الصاروخ إلى الإبرة مع أن فقهاء الإسلام اعتبروا إتقان كل علم أو مهنـــة ، أو صناعة يحتاج إليه المسلمون فرض كفاية .. كما اعتبروا ذلك عبادة وقربة إذا صحت فيه النية .

وهذا ما جعلنى أقول دائمًا : إن الأمة التى أنزل الله عليها (سورة الحديد) لم تتعلم صناعة الحديد .

وكان حسبها أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فيه بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ ﴾ (١) لنستخدم الحديد فى الميدانين المدنى والعسكرى ففى قوله: ﴿ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ إشارة إلي الصناعات الحربية وفى قوله ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية . وللأسف لم نحسن هذه ولا تلك ! .

لقد بدأت مصر نهضتها الصناعية مع اليابان فى عصر واحد ، بل قبل اليابان فأين مصر من اليابان اليوم ؟!

---

(١) الحديد : الآية ٢٥ .

ولقد رأينا بلاداً لم تبدأ نهضتها إلا من قريب ، ولكنها خطت خطوات جبارة فى وقت قياسى ، كما فى كوريا التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية نهضتها الصناعية ، والتى أصبح اليابانيون يرونها منافساً خطراً لهم .

ترى هل لدى الإنسان اليابانى والكورى والصينى والأوروبى من المواهب والقدرات ما ليس عند الإنسان العربى أو المسلم ، حتى تقدم القوم وتخلفنا ؟؟

لقد طال تخلفنا وطال ، حتى كاد يحسبه بعض الناس لازمة من لوازمنا الذاتية ، كأن التخلف عربى أو إسلامى ، كما أن التقدم غربى ! بل ربما توهم بعض من يجهلون التاريخ أن الإسلام هو سبب تخلفنا ، ما دام المسلمون – كل المسلمين – متخلفين ! وما دام كل المتقدمين غير مسلمين ! .

ونسى هؤلاء أن حضارة العالم كانت لعدة قرون إسلامية ، وكانت لغة العلم فى العالم هى اللغة العربية ، وكانت مراجع العلم العالمية فى الفلك والفيزياء والطب وغيرها مراجع إسلامية ، وكانت جامعات المسلمين موئل الطلاب من جميع أنحاء الدنيا ، وكانت أسماء علمائنا فى شتى التخصصات ألمع الأسماء فى الشرق والغرب .

ولم يعد لنا عذر أن نبقى فى سجن التخلف والعالم كله يتقدم من حولنا، وعندنا من الحوافز الدينية والأخلاقية والعملية ما يفرض علينا التقدم فرضاً . ولدينا من الطاقات المادية والبشرية ما يؤهلنا للسير فى قافلة التقدم ، واللحاق بركب الزمن الذى ننتسب إليه .

إننا فى حاجة إلى أن نخطط لأنفسنا ، بعد أن نحدد أهدافنا ، لننطلق إلى بناء التقدم المنشود ، بناء تشترك فيه كل الفئات والطبقات ، تشارك فى تخطيطه ، وتشارك فى تنفيذه ، وتشارك فى ثمراته .

إن التقدم الذى يلائمنا ، وينبع من ذاتنا حقاً ، هو التقدم المتوازن المتكامل ، فهو تقدم اقتصادى تنموى ، يصحبه ويلازمه تقدم سياسى واجتماعى وثقافى وأخلاقى ودينى ، وهو فى كل هذه الجوانب ، متكامل متوازن أيضاً .

فإذا أخذنا التقدم الاقتصادى مثلاً ، نجد فكرة الإسلام فيه ، أنه لا يهتم بجانب على حساب جانب ، فلا يعنى بالتجارة مثلاً على حساب الزراعة ، ولا يهتم بالزراعة على حين يغفل الصناعة أو العكس ، بل يعنى بها كلها لأهميتها .

فقد رغب الإسلام فى الزراعة والغرس وإحياء الموات أعظم الترغيب ، وليس منا من يجهل الحديث الصحيح المشهور « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » . وأعجب منه حديث : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها » ، رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد .

ولكن الإسلام – برغم ترغيبه فى الزراعة وتنويهه بمثوبة أهلها – كره لأمته أن تحصر نشاطها وجهدها الاقتصادى فى دائرة الزراعة وحدها . وأنكر على أبنائه أن يكتفوا بالزرع وحده ، ويتبعوا أذناب البقر وكفى ، مهملين الصناعات والحرف الأخرى ، التى تكتمل بها مقومات الأمة القوية ، وعناصر الحياة الطيبة العزيزة . وفى هذا قصور بين فى كفاية الأمة ، يعرضها للخطر .. ولا غرو أن جاء فى الحديث ما يدل على أن ذلك مصدر شر وبلاء وذل يحيق بمجموع الأمة ، وهو ما صدقه الزمن كل التصديق .

روى أبو داود عن النبى ﷺ « إذا تبايعتم بالعينة (وهى صورة من التحيل على أكل الربا باسم البيع) وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم ، حتى ترجعوا إلى دينكم » .

إن هذا الحديث الشريف يرسم بعباراته الوجيزة صورة للمجتمعات الزراعية الوادعة المستسلمة ، التى لا هم لها إلا الزرع ، واتباع أذناب البقر ، وإهمال أمر الجهاد والإعداد ، وهو ما يجعلها فريسة سهلة الوقوع فى براثن المرابين فى الداخل ، والغزاة من الخارج ، فلا مناص إذن من العمل على تكامل كل عناصر القوة المادية والاقتصادية للأمة ، فلا يكتفى بزراعة عن صناعة ، ولا بصناعة مدنية عن صناعة حربية ، ولا بهذه وتلك عن التجارة ، ولا بالجميع عن التربية الجهادية ، والإعداد العسكرى ، الذى يرهب عدو الله وعدو المسلمين .

وما ينبغى ملاحظته وجوب إقامة التوازن بين حق الأقطار والأقاليم فى استغلال مواردها ، وتنمية ثروتها ، وأن تأخذ بنصيبها منها ، وبين حق الأمة الكبرى فى سد الثغرات ، وبناء الصناعات الثقيلة الكبرى ، وتحقيق تكامل اقتصادى ، يهيئ للأمة اكتفاء ذاتياً ، ويجعلها قادرة على اتخاذ قرارها بنفسها وفى أرضها دون حاجة إلى أن تمد يدها لغيرها ، وهذا ما توجبه المصلحة

OBEIKANDI.COM

المشتركة التى جعلت العالم الآن ينقسم إلى أن كتل كبيرة اقتصادية وسياسية ، وهو ما توجبه الأخوة الإسلامية ووحدة العقيدة ، وتفرضه النصوص الوفيرة « وتعاونوا على البر والتقوى » « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

وبجوار هذا التوازن المكانى بين أقطار الأمة بعضها وبعض ، يجب أن يتحقق توازن زمانى أيضاً ، بين أجيال الأمة بعضها وبعض . على معنى أنه لا يجوز أن يفرض التقشف والحرمان والجهد الشاق على جيل معين ، تضحية منه أو تضحية به فى سبيل جيل آخر أو أجيال لاحقة فى عالم الغيب ، وقد قال الفقهاء فى موقف مشابه :لا يجوز التضحية بالأم عند تعسر الولادة من أجل جنينها ، لأن حياتها حقيقية ، وحياته موهومة غير محققة ، ولا يضحى بالحقيقى فى سبيل موهوم . كما أنها أصل وهو فرع ، فكيف يضحى بالأصل من أجل فرعه ؟

وأهم من ذلك أنه لا يجوز أن يسرف جيل من الأجيال فى استغلال الموارد الطبيعية ، والاستمتاع بالثروة الوطنية على حساب الأجيال القادمة .

وإذا كان الشرع قد نهى الأفراد عن الإسراف والتبذير ، بحيث لا يتخم شخص بجوع شخص آخر ، ولا يملأ شر الأوعية – وهو بطنه – بأن يجور ثلث طعامه على ثلث شرابه ، أو ثلث نفسه ، كما لا يأكل رزق عدة أيام فى يوم واحد ، فكذلك لا يجوز أن يأكل جيل واحد رزق عدة أجيال قادمة ، نتيجة السرف والترف والتوسع وسوء الاستهلاك .

وإذا كان الأب العاقل الرحيم يجتهد أن يدخر لأولاده من بعده ما يساعدهم على شق طريقهم فى الحياة بقوة وأمل ، ولو بحرمانه أحياناً من بعض ما يشتهيه .. فإن على الأمة أن تنهج هذا النهج مع أجيالها ، حتى يتكافل بعضها وبعض ، وحتى يدعو لاحقها لسابقها ، ولا يلعن آخر الأمة أولها .

وهذا ما لاحظه أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ومن وافقه من فقهاء الصحابة ، حين أبى أن يقسم الأرض المغنومة على الفاتحين ، كما طالب بذلك بعض الصحابة ، واتجه إلى إبقائها فى أيدى أربابها ، وفرض خراج عليها لبيت مال المسلمين ، لتكون ذخراً للأجيال اللاحقة . وعبر بعض الفقهاء عن ذلك بأنه « وقفها » على المسلمين . وقد كان حجة عمر فى صنيعه هذا آيات توزيع الفيء فى سورة الحشر (٧ – ٩) .

فقد قررت الآيات توزيع عائد الفئ توزيعًا عادلاً ، لا زال غرة فى جبين الإنسانية ، فجعلت نصيبًا فيه للجيل الحاضر من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وصودرت ملكياتهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ومن الأنصار الذين فتحوا صدورهم ودورهم لإخوانهم المهاجرين فآووا ونصروا ، وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وأشركت مع هذا الجيل الذى بذل وضحى أجيالاً أخرى ، عبر عنهم القرآن بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا من بَعْدهمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِين آمَنُوا ﴾(١) .

وبهذا علمتنا الآيات الكريمة أن الأمة كلها وحدة متكاملة على اختلاف الأمكنة وامتداد الأزمنة ، وأنها – على مر العصور – حلقات متماسكة ، يعمل أولها لخير آخرها ، ويغرس سلفها ليجنى خلفها ، ثم يأتى الآخر فيكمل ما بدأه الأول ، ويفخر الأحفاد بما فعله الأجداد ، ويستغفر اللاحق للسابق ، ولا يلعن آخر الأمة أولها .

وبهذا التوزيع العادل تفادى الإسلام خطأ الرأسمالية التى تؤثر مصلحة الجيل الحاضر ومنفعته ، مغفلة – فى الغالب – ما وراءه من الأجيال ، كما تجنب خطأ الشيوعية (كما فى عهد ستالين وماوتس تونج) التى تتطرف كثيرًا إلى حد التضحية بجيل أو أجيال قائمة ، فى سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة .

ولهذا قال الفقيه الجليل معاذ بن جبل لأمير المؤمنين عمر ، حين هم بقسمة الأرض – أول الأمر – على الفاتحين : « والله إذن ليكونن ما تكره : إنك إن قسمتها اليوم صار الريع العظيم فى أيدى القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك إلي الرجل والمرأة !! ثم يأتى بعدهم قوم يسدون من الإسلام سدًا ، وهم لا يجدون شيئًا فانظر أمرًا يسع أولهم وآخرهم » قال : فصار عمر إلي قول معاذ (٢) .

ومن هنا قال عمر لبلال وغيره ممن عارض وقف الأرض على الأمة كلها(٣) : « تريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شىء ؟! » .

---

(١) الحشر : الآية ١٠ .
(٢) الأموال لأبى عبيد ص ٥٩ .
(٣) نفسه ص ٥٨ .

ومن ثم يجب أن نقف مع أنفسنا وقفة مراجعة وتقويم ، لسلوكنا مع ذلك الكنز العظيم الثمين ، الذى ننفق منه بإسراف ، يبلغ حد الإتلاف ، ويستهلك منه جيلنا ما كان يكفى لعدة أجيال ، وأريد بهذا الكنز : النفط – البترول ، هذه المادة النفيسة الغالية التى أودعها الله بين يدى أمتنا ، لتكون ذخيرة لها ولأجيالها المتعاقبة ، فى عصر تخلفت فيه عن ركب الأمم المتحضرة .

كان الواجب أن نأخذ من هذا الكنز بحساب ، حتى لا نجور على حق من بعدنا ، ولكنا لم نبال إلا بأنفسنا ، وتوسعنا فى السحب من رصيدنا هذا توسعاً لو صنعه الفرد فى ماله ، لقلنا عنه : سفيه يجب الحجر عليه ، وغل يده عن التصرف فى حر ماله . حفاظاً على حق نفسه وحقوق غيره .

وإذا كان ثمة عذر لنا فى بعض العقود السابقة من السنين ، لتمكن النفوذ الأجنبى من مقدراتنا حين ذاك ، فلم يعد لنا اليوم عذر بعد أن أصبحنا سادة أنفسنا ، والمستقلين بالتصرف فى ثرواتنا .

وحسب هذا الجيل ، والجيل الذى قبله أيضاً ما أنفقه ، بل ما أحرقه ، من هذا الكنز الذهبى الكبير .

ولكن السؤال الكبير هنا : ما الذى يحول بيننا وبين التقدم والنماء المنشود ؟

* *

● العقبات فى طريق التقدم والنماء :

إن هناك عقبات شتى تقف فى طريقنا إلى التنمية والتقدم الحقيقى ، إذا لم نخطط ونعمل جاهدين للتغلب عليها ، فسنظل ندور حول أنفسنا ، لا نخرج من دائرة التخلف ، والصحوة الإسلامية هى المؤهلة للتغلب على هذه العقبات :

١ – أولى هذه العقبات : المسافة الشاسعة التى بيننا وبين الدول المتقدمة علينا ، فلا زلنا حتى اليوم – فى موقف المستوردين والمستهلكين ، ولا زالوا هم الصناع والمنشئين .

إننا نحاول أن نرتقى إلى عصر الصناعة الأول عندهم ، وهو الذى كانت تعمل فيه الآلة لتوفير الجهد البدنى للإنسان . أما هم فقد ارتقوا الآن إلى « عصر الصناعة الثانى » وهو الذى تعمل فيه الآلة لتوفير الجهد الذهنى

OBEIKAN.COM

للإنســـــان ، عصـــر الحاســـبات والخازنات الآلية للمعـلومات ، أى عصر « الكومبيوتر » الذى بلغت صناعته الآن مستويات مذهلة ، واتسعت استخداماته حتى شملت كافة مجالات الحياة ، وأصبحت الدول الصناعية نفسها منقسمة فى هذا المجال ما بين متقدم ومتخلف ، فالولايات المتحدة واليابان فى المقدمة ، والدول الأخرى تأتى بعدها بمراحل كثيرة . وأصبحت « الأجيال » الجديدة من هذا المخلوق « الكومبيوتر » أكثر تقدماً وتفوقاً من الأجيال القديمة بمقادير هائلة .

فكيف نلحق بركب القوم ، والشقة بعيدة بيننا وبينهم ؟! والبلية التى لا تنكر أنها لا تضيق بمرور الأيام ، بل تزداد اتساعاً ، وكيف لا ونحن لا نزال نسير بسرعة الجمل ، وهم يسيرون بسرعة الطائرة ، بل الصاروخ ؟!

وكما أن فى دنيا الاقتصاد يكون الغنى أقدر على أن يزيد غناه بيسر وسهولة ، من الفقير الذى يريد أن يحصل غنى جديداً . كذلك فى دنيا العلم والتكنولوجيا ، من ملكهما استطاع بهما أن يفتح كل يوم آفاقاً جديدة في مجالهما ، فالعلم يدفع إلى المزيد من العلم ، والتكنولوجيا المتفوقة تسهل المزيد من التفوق وتغرى به .

فنحن أشبه بالفقير الذى يريد أن يكون ثروة من الصفر ، وهم أشبه بالرأسمالى الذى يجد المجالات مفتوحة أمامه ، لتصبح ألفه مليوناً ومليونه بليوناً ، بلا معاناة !

٢ - **العقبة الثانية** : أن الدول التى تملك ناصية العلم والتكنولوجيا ، والتى نحتاج للتتلمذ عليها لنأخذ عنها العلم وتطبيقاته ، ليست مخلصة فى تعليمنا ما عندها ، ولا حريصة على تقدمنا .

إنها تجاملنا حينما تسمينا (الدول النامية) مجاملة لنا ، وتلطفاً بنا بدل أن تسمينا « الدول المتخلفة » ولعلها تقصد بذلك إلى إيهامنا بأننا فى طريق النماء بالفعل ، على حين لازلنا فى طور التخلف .

والحقيقة أن هذه الدول تعمل على بقائنا فى مكاننا ، كالثور فى الساقية يدور ويدور ، والمكان الذى انتهى إليه هو الذى ابتدأ فيه .

إنها لا تساعدنا على تنمية التقدم ، بل تعمل جاهدة على « تنمية التخلف » كما سماه أحد الباحثين .

« فلم يكف الغرب الشره ما صنعه فى مرحلة الإبادة والاسترقاق فى القارات الثلاث (ذبح الغرب أربعين مليونًا من الهنود الحمر فى أمريكا ، واسترق مائة مليون إنسان باللصوصية والحيلة والسوط فى إفريقيا ، وامتص دماء خمسمائة مليون فى آسيا) .. ولم يشبع نهمه ما حصل عليه من ثروات وكنوز ومكاسب فى مرحلة « النهب العالمى » التى يسمونها مرحلة « الاستعمار » من باب تسمية الشيء بضده ! حين كانت بلاد الشرق والعرب والإسلام « بقرة حلوبًا » للغرب . وكان اقتصادها كله « خادمًا » للاقتصاد الغربى ، مهمتها أن تقدم المواد الخام للمصانع الغربية ، ولو على حساب الإنتاج الغذائى لأهل البلاد وتستغل الأيدى العاملة الكادحة بالسخرة والسياط ، بدل نقلها عبيداً إلى ما وراء البحار ! كانت هذه البلاد تزرع القمح وتأكل التبن ، وتزرع القطن ولا تجد ما تلبسه .

لم يكف الغرب ما صنعه فى المرحلتين السابقتين حتى أضاف إلى أمجاده مجداً جديداً يتمثل فى مرحلة « تنمية التخلف »كما سماها د.شاكر مصطفى.

« إن كل قوى الدنيا أثيرت ضد العرب حين ارتفعت أسعار البترول سنة ١٩٧٤ ، استكثر الغرب أن يزداد الدخل القومى لبعض دول العالم الثالث . ومع ذلك فإن الدخل البترولى العربى كله لا يساوى الإنتاج القومى لإيطاليا وحدها . وثلاثة أرباع عائداته إنما تعود مرة أخرى إلى المؤسسات الغربية إما لتسديد الاستهلاك وإما ودائع أبدية .. الله أعلم بمصيرها ! .

ويتحدثون عن معونات الدول المتقدمة للدول المتخلفة .. إن ٧٣ ٪ من المعونات التى قدمت للعالم الثالث فى السبعينات كانت تعود إلى أصحابها فى سنة دفعها نفسها .

النهب المزمن القديم لا يستمر فقط ولكنه يزداد ، وتضاف إليه الآن عمليات أخرى من التدمير لهذا العالم المنكوب :

– امتصاص خبراته البشرية الناشئة لئلا تتكون منها قاعدة تنموية قوية.

– الربط بعجلة الاستهلاك ليكون أكثر تأثراً بتهديد الجوع .

– إثارة جميع عوامل التمزق الاجتماعى والدينى واللغوى والسياسى والاقتصادى فى المجتمعات النامية لتكون أضعف من أن تستغل خيراتها أو ترفض الخنوع .

إنها التنمية للبلاد النامية ولكن على الطريقة الغربية ، تنمية التخلف .

ولا أريد أن أذكر هنا كيف يغرى الغرب المتقدم العقول النابغة من أبنائنا ليستخدمها عنده ويحرم منها بلادها ! وأكثر من ذلك أن أجهزة سرية ترصد العبقريات الشابة التى يتألق نجمها فى سماء العلم ، وخاصة فى الميادين الحساسة كالذرة والإلكترونيات ونحوها ، لتدبر اغتيالها بسبب أو آخر !!

ولعل يومًا يأتى تنشر فيه أسرار أحداث من هذا النوع تكشف لنا ماذا يكنه الغرب للشرق عامة والشرق الإسلامى خاصة ؟

وهل ننسى ما بذله القوم من جهود مستميتة لوأد جهود باكستان فى سبيل الوصول إلى صنع قنبلة نووية ؟ حتى لا يوجد بلد إسلامى واحد يملك هذا السلاح ، على حين ملكه اليهود فى إسرائيل ، والهندوس فى الهند ، وغير هؤلاء وهؤلاء ؟!

وهل ننسى ضرب إسرائيل للمفاعل النووى العراقى ؟ وهل يتصور أن يتم هذا دون علم من أمريكا ، وتسهيل ومعاونة من أجهزتها وأقمارها الصناعية ؟

ومعنى هذا كله أن اعتمادنا على الغرب اعتماداً كليًا إنما هو اعتماد على فراغ ، ولا بد أن نعتمد – بعد الله تعالى – على أنفسنا .

٣ – وعقبة ثالثة : أننا ما دامت أوضاعنا الاجتماعية والسياسية والفكرية والتربوية والأخلاقية كما هى ، فلسنا أهلاً لامتلاك تكنولوجيا متطورة .

فالتكولوجيا ليست مائدة تنزل من السماء حافلة بما لذ وطاب ، كالمائدة التى طلبها الحواريون من المسيح عيسى عليه السلام ، ولكنها ثمرة لشجرة لابد أن تغرس وتسقى وتتعهد ، حتى تؤتى أكلها بإذن ربها .

فلا بد من تربية سليمة تهيئ لزهرات العقول الذكية أن تتفتح ، وتجد المناخ الملائم لبروزها ونمائها وإثبات وجودها ، وتجد من المجتمع التشجيع والمعاونة ، وتجد من الأنظمة السياسية ما يسهل لها بلوغ أرقى المستويات ، ويضع بين يديها من الإمكانات ما يمكنها من الاستفادة من خبراتها فى الرقى بوطنها ، ومنحها من الحوافز وحرية الحركة ما يصقل مواهبها ، ويؤهلها للإبداع والإتقان .

OBEIKAN.COM

أما إذا كان أكبر هم المؤسسات التعليمية والجامعية تخريج جيوش من الموظفين ، وكان البحث العلمى على الهامش ، والباحثون والمبتكرون فى مؤخرة الصفوف ، والنابغة يوضع فى غير مكانه المناسب ، ليحل محله الموالى أو المحسوب أو الثرثار ، أو المنافق ، وجو الأمن والحرية غير متوافر ، فهذا كله مما يدفع إلى تزايد العقول المهاجرة من أوطانها إلى العالم الغربى يوماً بعد يوم ، حيث تعد هذه العقول لا بالمئات بل بالألوف فى أوروبا وأمريكا .

إنها تجد هناك أمنها وحريتها ورخاءها وتقديرها وإثبات وجودها العلمى . وكثير من أصحاب هذه العقول يفعل ذلك كارهاً . غير راضى النفس ولا منشرح الصدر ، ولا قرير العين .

إن مناخ الحرية والعدل وإعطاء كل ذى حق حقه ، هو الذى يتيح للمواهب أن تبرز ، وللقدرات أن تعمل .

وفى أدبنا العربى يحكون أن عنترة العبسى كان محقوراً من قبل أبيه وقبيلته لسواد لونه ، فكان موكولاً إليه رعى الإبل ، شأنه شأن عبيد أبيه ، فلما أغارت على قبيلته بعض القبائل الأخرى وفتكت بها ، وقف يتفرج ، لا يشارك ولا يتحمس ، فنظر إليه أبوه وقال له : كر ! فقال الفتى فى مرارة : العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر ! فقال الأب : كر وأنت حر !

وهنا وثب الفتى كالليث الهصور ، وأبدى من البطولة فى الدفاع عن حوزة القبيلة ، ورد المغيرين ، ما جعله حديث الجميع ، إن كلمة تقدير وإحقاق للحق هى التى أعادت للفارس المهضوم اعتباره ، وردت إليه كرامته ، وجعلته بعد ذلك أسطورة للعرب فى الشجاعة والفداء . وقد تحدث عن قومه بنى عبس وموقفه منهم فى بعض شعره فقال :

قد كنت فيما مضى أرعى جمالهمو واليوم أحمى حماهم كلما نكبوا

فهل وعى حكامنا والمسؤولون فينا هذا الدرس ، ليخرجوا من رعاة الجمال « عناتر » من نوع جديد ، شجاعتهم فى عقولهم ، وعدتهم العلم والتفوق ، وسلاحهم « التكنولوجيا » ؟!

أراد أحد الحكام العرب فى وقدة من وقدات الحماس أن يستقطب الكفايات والعبقريات العلمية العربية والإسلامية المهاجرة إلى الغرب ، وبعث مندوبيه ودعاته هنا وهناك ، يدعون هذه الكفايات أن تدع مهاجرها لتعود إلى

وطن عربى مسلم تحقق فيه ذاتها ، وتخدم فيه دينها وأمتها ، ويعدونهم بأن كل الإمكانات المادية والأدبية ستوفر لهم ، وأن مدينة للعلم والبحث والتكنولوجيا ستنشأ وتقوم بوجودهم ، وأن .. وأن .. من المبشرات التى جعلت كثيرين منهم يستجيبون للدعوة ، ويرحبون بالعودة ، وكلهم رجاء وأمل ، وعزيمة على العمل ، ولكنهم بعد قدومهم ، للبلد الذى دعاهم واستضافهم فوجئوا بجو غريب ، وعوملوا كأنهم أسرى حرب ، أخذت منهم جوازات السفر فلم يعودوا قادرين على أية حركة أو انتقال إلا بإذن ولا إذن . وغدوا محكومين لبعض العسكريين الذين يعاملونهم كأنهم جنود فى مرحلة التدريب، ولم تطق هذه العقول هذا السجن الإجبارى ، فلم تكد تتاح لها فرصة الإفلات حتى رجعت إلي مهاجرها ، وهى تنشد قول الشاعر العربى القديم حين ركب دابته ، وخاطبها وهو حر آمن :

عدَسْ ما لعبّادٍ عليك إمارة أمنت ، وهذا تحملين طليق !

٤ – **وعقبة رابعة** : أننا نريد أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة فرادى متفرقين ، فكل دولة عربية أو إسلامية ، تريد أن تتقدم وتتطور بإمكاناتها الخاصة ، وفى دائرتها المحدودة ، وهيهات لدولة نامية مهما بلغت من القدرة المالية والعددية أن تستطيع اللحاق بقافلة الدول الصناعية وحدها .

وإذا كنا نقول عن الفرد : إنه قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وضعيف بمفرده قوى بجماعته ، فكذلك الدول . الدولة الواحدة بمعزل عن شقيقاتها أضعف من أن تحقق الأمل الكبير فى التقدم العلمى التطبيقى ، ولكن الدول الإسلامية التى تزيد على الأربعين ، أو على الأقل العربية التى تزيد على العشرين ، تستطيع أن تعمل عملاً ، إذا تجمعت قدراتها ، واتحدت إراداتها واجتمعت كلماتها .

إنها لا ينقصها المال ، وبخاصة الدول النفطية منها ، ولا ينقصها العدد ، وهم نحو مائتى مليونًا من العرب ، ونحو مليار من المسلمين ، ولا تنقصها العقول المبدعة ، وفى الغرب وحده منها الكثير ، ولكن ينقصها العزم والتخطيط ، وتجميع الطاقات ، وتوحيد الجهود .

ولقد أقامت مجموعة من البلاد العـــربية – فى وقت من أوقات الاتفاق أو التقارب السياسى – هيئة عربية للتصنيع مقرها القاهرة . وقلنا : الحمد لله

خطوة مباركة ، ثم كان شؤم ما سموه « مبادرة السلام » وما ترتب عليها من خلاف فى السياسة العربية سبباً فى حل هذه الهيئة الصناعية .

إننا فى عصر الإنتاج العريض ، وفى عصر التكتلات الكبرى ، وفى عصر الأسواق المشتركة ، والويل للصغار إذا تفرقوا وعملوا فرادى فى سوق يسيطر عليها الكبار متجمعين .

٥ – وعقبة خامسة : أن الأمة لم تعبأ تعبئة معنوية للوصول إلى التقدم والنمو المنشودين ؛ لظن الكثيرين ممن بيدهم أزمة الأمور عندنا : أن لا صلة للماديات بالمعنويات ، ولا علاقة للدين بالدنيا ، ناسين أن الإنسان هو وسيلة التكنولوجيا ، كما هو هدفها ، وأن الإنسان إنما تحركه أهداف وحوافز وقيم ، يمكن أن تفجر فيه طاقات هائلة ، يستطيع أن يتخطى بها العقبات ، ويصنع ما يشبه المعجزات ، ولهذا كان العنصر الدينى فى غاية الأهمية لإنسان مجتمعاتنا ، الذى لا يؤثر فيه شيء مثل كلمة الدين ، ولا يحفزه حافز إلى العمل والإبداع مثل حافز الإيمان .

وطالما قلت : إن لكل أمة روحًا وشخصية خاصة ، ولكل شخصية مفتاحها الذى لا يفتح مغاليقها غيره ، مثل مفتاح السيارة ، التى لا يدور محركها ولا تتحرك عجلاتها إلا به . إنك إذا وضعت فيها مفتاحها الخاص بها، فإنك بلمسة واحدة قادر على أن تحركها وتصل بها إلى ما تريد . أما إذا أردت أن تحركها بغير مفتاحها فهيهات هيهات . لا تستطيع أن تحرك سيارة النقل بمفتاح « الصالون » ولا سيارة أمريكية بمفتاح سيارة إيطالية . إنها محاولة فاشلة وتضييع للوقت والجهد بلا حاصل .

وليس معنى هذا أننا بالتسبيح والتهليل ، أو الصلاة أو الصيام ، أو تلاوة القرآن – وحدها – قادرون أن نحقق أهدافنا ، ونسابق خصومنا . كلا ، فما قلت هذا أبداً ولا أقوله ولن أقوله . فإن مفتاح السيارة الحقيقى لن يحركها إذا كان خزانها فارغاً من « البنزين » أو بطاريتها فارغة من الكهرباء . أو عجلاتها فارغة من الهواء ، أو بها عطب يمنعها من الحركة والانطلاق . لابد من استيفاء الشروط ، وانتفاء الموانع ، لكى يؤدى المفتاح مهمته فى دفع السيارة إلى الأمام .

* *

٢ - هَمُّ الظلم الاجتماعى

رغم المناداة من زمن طويل بالعدالة الاجتماعية ، وقيام أحزاب تنادى بالاشتراكية . فإن الظلم الاجتماعى فى أوطاننا لازال حقيقة واقعة .

هناك فئات تتمتع بامتيازات غير معقولة ، تجعلها تلعب بالملايين لعباً حيث يتاح لها من الفرص والإمكانات ، ما يجعل الثراء إليها يطرق بابها ، وإن لم تتعب فى السعى إليه .

وإلى جوار هؤلاء نجد أناساً يبحثون عن لقمة الخبز ، فلا يجدونها ، وإذا وجدوها فبشق النفس ، مغموسة بالعرق والدمع والدم .

قصور فاخرة لا تجد من يسكنها ، وإذا سكنها أصحابها فهى أيام معدودة من صيف أو شتاء .. وفى مقابلها عشش من الصفيح ، أو البوص ، أو اللبن ، وحجرات فى الحارات والأزقة ، فى الأحشاء الدقاق للمدن ، فى كل حجرة منها عائلة من زوجين وأولاد ، وربما معها أم أو أب !

شباب بلغوا سن الثلاثين أو أكثر ، لا يستطيعون الزواج ، لأنهم لا يجدون شقة صغيرة تؤويهم وزوجاتهم . وواحد ينفق فى ليلة عرسه ربع مليار من الدولارات أو تزيد !

أناس لا يجدون (القروش) المعدودة ، لسد جَوْعة ، أو لستر عورة ، أو لعلاج مريض ، وغيرهم يعبثون بالملايين ، ينفقون نفقة المسرفين ، بل المتلفين، ويعيشون عيشة (أولى النّعمة) المترفين ، الذين اعتبرهم القرآن أعداء كل رسالة وخصوم كل إصلاح أو تغيير .. وشيوع هذا الترف ، وبروز أصحابه نذير بهلاك المجتمعات ودمارها ، وفقاً للسنة التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١) .

ذلك أن التظالم الاجتماعى ، يؤثر تأثيراً سلبياً على السياسة ، وعلى الاقتصاد والتنمية ، وعلى الأخلاق أيضاً .

فحين تحتكر الثروة فئة من الناس ، أو تتمتع أسرة أو طبقة بامتيازات لا

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .

OBEIKAN.COM

تتوافر لغيرها ، يعنى ذلك أنها القادرة على التأثير فى السياسة ، والوصول إلى المناصب السياسية العليا ، بسطوتها الاقتصادية ونفوذها لدى من بيدهم الأمر ، حتى البلاد التى تجرى فيها انتخابات ، يستطيع المال أن يلعب دوراً كبيراً فى التأثير على الناخبين ، بالدعاية المركزة حيناً ، وبالتأثير على القوى الضاغطة ، حيناً ، وبشراء الأصوات حيناً آخر ، مما جعل بعض الناس ينادون بالديمقراطية الاجتماعية ، قبل الديمقراطية السياسية ، وإن كانوا فى النهاية أضاعوا الاثنتين معاً .

وفى جانب الاقتصاد والتنمية ، حين يرى الناس أن العاملين يحرمون ، وأن القاعدين يكسبون ، وأن الذين يكسبون الملايين هم لصوص الانفتاح ، وتجار المخدرات ، وموردو الأطعمة الفاسدة ، والألبان الملوثة بالإشعاع القاتل ، وأمثالهم من المتاجرين بصحة الشعب ، وحياة الأجيال . وأن توزيع الثروة لا يتم وفق قوانين العدالة التى جاء بها الدين ، وقامت بها السموات والأرض ، ولكن وفق معايير تحكمية ، أو أهواء بشرية – سينعكس ذلك سلباً على العمل والإنتاج كماً ونوعاً .

بل إن الشعور بالظلم قد يجعل الفرد لا يتحمس للدفاع عن وطنه ، الذى لم يطعمه من جوع ، ولم يؤمنه من خوف . وسيقول متذمراً ما قال المثل العامى : فى همكم مدعوون ، وفى فرحكم منسيون ! أو ما قاله الشاعر قديماً :

وإذا تكون كريهة أُدعى لها

وإذا يحاس الحيس يدعى جندب !

وهذا ما جعل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يقول لواليه على حمص حين كتب إليه يطلب مالاً لبناء سور المدينة ، فقال له : حصنها بالعدل ، ونق طرقها من الظلم ! يريد أن المدينة التى يشعر أهلها بقيام الحق والعدل فيها يحميها أهلها ويستميتون فى الدفاع عنها ، قبل أن تحميها الأسوار والتحصينات .

وفى مجال الأخلاق والعلاقات الاجتماعية ، يُشيع التظالم رذائل الحقد والحسد والبغضاء ، وهى التى اعتبرها الحديث النبوى (داء الأمم) وسماها (الحالقة) لا لأنها تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين .

كما أن روح الانتهازية وحب الإثراء من أى طريق ، وأقرب طريق ، وفقد الثقة بجدوى الاستقامة والجد فى العمل .. كل أولئك وغيرها بعض آثار الظلم الاجتماعى ، وهى من الموبقات للأمم والمجتمعات .

والتيار الإسلامى يقدم الحل العادل للخلاص من الظلم الاجتماعى ، وإقامة العدالة الاجتماعية ، وتقريب الفوارق بين الأفراد والطبقات ، بحيث لا يزداد الغنى غنى ، والفقير فقراً ، فى ظل فلسفة كلية تمزج بين الروح والمادة ، وتجمع بين حسنتى الدنيا والآخرة ، وتوفق بين مطامح الفرد ومصالح المجموع .

١ – احترام الملكية الخاصة إذا تحقَّقت من طريق مشروع ، مع إيجاب قيود وتكاليف إيجابية وسلبية على المالك ، باعتبار المال مال الله فى الحقيقة ، وهو مستخلف فيه . ومنع المالك من الإضرار بغيره ، وبخاصة الإضرار بالمجتمع ، فملكيته ليست مطلقة ، ولا ضرر ولا ضرار فى الإسلام .

٢ – تحريم موارد الكسب الخبيث ، من مثل : الاتجار فى المواد المحرمة كالمسكرات والمخدرات ، أو الغصب أو السرقة ، أو الرشوة ، أو استغلال النفوذ، أو أى طريقة لأكل أموال الناس بالباطل .

٣ – تحريم الربا والاحتكار ، وهما الساقان اللتان تقوم عليهما الرأسمالية الجشعة .

٤ – مصادرة الملكية المجموعة من حرام ، لحساب الفئات الفقيرة والمحرومة ، وإن طال الزمن على تملكها ، فمضى الزمن لا يحل الحرام فى الإسلام .

٥ – مساءلة من أثرى ثراء مفاجئًا ، أو جمع مالاً مشتبهًا فى طريقة كسبه أيا كان مركزه ، وبخاصة كبار موظفى الدولة ، وهو قانون « من أين لك هذا ؟ » وقد بدأه النبى ﷺ .. ونفذه فى أكثر من واقعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

٦ – منع تملك الأشياء الضرورية للمجتمع ، ملكية خاصة ، اهتداء بحديث « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » وكانت هى الأشياء الضرورية للعرب فى عصر النبوة ، ويقاس عليها الآن كل ما يضر امتلاكه للأفراد .

٧ – منع المالك من السرف والترف والتبذير فى ماله ، لما للجماعة من حق فيه ، إلى حد جواز الحجر عليه ، وغل يديه عن التصرف فيه عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) . وتربية المجتمع عمومًا على الاعتدال فى الاستهلاك وعدم إضاعة المال فيما لا يعود على الفرد ولا الجماعة ، بنفع مادى ولا معنوى ، ومحاربة العادات الضارة فى الاستهلاك ، حفاظًا على الثروة الخاصة والعامة .

٨ – اعتبار العمل حقًا لكل إنسان قادر ، وواجبًا عليه فى الوقت نفسه ، وعلى الدولة أن تهيئ للفرد العمل المناسب ، وأن توفر له من التدريب ما يلزمه، ولا يجوز إعطاؤه من الزكاة ، وهو قادر ، فإنها لا تحل لذى مرة سوى ، كما فصلنا ذلك فى (فقه الزكاة) .

٩ – من عجز عن العمل ، أو قدر عليه ولم يجده ، أو وجده ولم يكن دخله منه كافيًا له ولمن يكلف بإعالته ، وجبت إعانته حتى يكتفى .

١٠ – فرض الزكاة على أغنياء الأمة لترد على فقرائها ، والغنى كل من ملك نصابًا من مال نام ، والفقير كل من لا يجد تمام الكفاية ، والزكاة هى أول الحقوق فى المال ، وليست آخرها ، ففى المال حقوق سوى الزكاة .

١١ – إعانة ذوى الحاجات الطارئة مثل الغارمين (المدينين) وأبناء السبيل (كاللاجئين) .

١٢ – تحقيق التكافل العام ، الذى يجعل المجتمع كالجسد الواحد ، بدءًا بتكافل الأقارب ، فتكافل أهل الحى أو أهل القرية ، فأهل الإقليم ، فالمجتمع كله بعد ذلك ، فكل مواطن فى المجتمع الإسلامى – مسلمًا أو غير مسلم – يجب أن يتحقق له تمام كفايته . وهو ما يشمل المأكل والمشرب والملبس والمسكن والعلاج ، والتعليم ، وكل ما لا بد له منه له ولأسرته ، بما يليق به ، من غير إسراف ولا تقتير. ويؤخذ ذلك من الزكاة، ومن موارد الدولة الأخرى ، وقد وضحنا ذلك فى كتابنا (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام) .

١٣ – رعاية التكافل الزمانى – إلي جوار التكافل المكانى – وهو التكافل

---

(١) سورة النساء : آية ٥ .

بين الأجيال بعضها وبعض ، بحيث لا يطغى جيل على حقوق الأجيال التى بعده ، بتبديد الثروة الوطنية أو الإسراف فيها ، أو تحميلها أعباء نتيجة سوء تصرف الجيل القائم ، وقد وضحنا بعض ذلك فى الحديث عن (التخلف) .

١٤ – توزيع الثروة وفق قاعدة (الفرد وبلاؤه) وقاعدة (الفرد وحاجته) وإقرار مبدأ الميراث والوصية ، كما شرعهما الله . وهما من عوامل تفتيت الثروات الكبيرة .

١٥ – تقريب الفوارق الشاسعة بين الأفراد والطبقات بالعمل المخطط الدؤوب على رفع مستوى الفقراء ، والحد من طغيان الأغنياء ، كيلا يبقى فقر مدقع وبجواره ثراء فاحش ، عملاً بتوجيه القرآن فى حكمة توزيع الفىء على الفئات الضعيفة ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (١) .

١٦ – تنمية الثروة الفردية والجماعية ، بما لا يضر بقيم الأمة وأخلاقها وعقائدها ، فالاقتصاد الإسلامى اقتصاد أخلاقى ، ولا يقبل الإسلام النمو الاقتصادى إذا كان على حساب المثل العليا – ولهذا أهدر المنافع الاقتصادية للخمر والميسر لما وراءهما من الإثم الكبير ، ومنع حج المشركين وطوافهم بالبيت عرايا وإن خسر المسلمون من وراء ذلك مكاسب مادية ﴿ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

* *

(١) سورة الحشر : آية ٧ .

(٢) سورة التوبة : آية ٢٨ .

OBEIKAN.COM

٣ - هَمُّ الاستبداد السياسى

ومن أعظم هموم الوطن العربى والإسلامى هم الاستبداد السياسى : استبداد فئة معينة بالحكم والسلطان ، برغم أنوف شعوبهم ، فلا هم لهم إلا قهر هذه الشعوب حتى تخضع ، وإذلالها حتى يسلس قيادها ، وتقريب المداحين بالباطل ، وإبعاد الناصحين بالحق .

هذا الاستبداد خطر على الأمة فى فكرها وفى أخلاقها ، وفى قدرتها على الإبداع والابتكـــار . ولسنا فى حاجة إلي أن نعيد ما كتبه ، الشـــيخ عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه الشهير (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) عن مضار الاستبداد ، وآثاره فى حياة الفرد ، وحياة الجماعة ، وإن كان الاستبداد اليوم أشد خطراً من قبل بمراحل ومراحل ، مما أصبح فى يد السلطة من إمكانات هائلة ، تستطيع بها أن تؤثر على أفكار الناس وأذواقهم وميولهم ، عن طريق المؤسسات التعليمية والإعلامية والتثقيفية والترفيهية والتشريعية ، وجلها - إن لم تكن كلها - فى يد الدولة .

كما لست فى حاجة إلى إعادة ما ذكرته عن (الشورى) أو (البعد السياسى) فى الإسلام ، كما تفهمه الصحوة .

ولكن الذى أؤكده أن الإسلام أول شىء يصيبه الأذى والضرر البالغ من جراء الاستبداد والطغيان .

وتاريخنا الحديث والمعاصر ينطق بأن الإسلام لا ينتعش ويزدهر ، ويدخل إلى العقول والقلوب ، ويؤثر فى الأفراد والجماعات ، إلا فى ظل الحرية التى يستطيع الناس فيها أن يعبروا عن أنفسهم ، وأن يقولوا : (لا) و (نعم) إذا أرادوا ولمن أرادوا ، دون أن يمسهم أذى أو ينالهم اضطهاد .

كما أثبت التاريخ الحديث والمعاصر أن الدعوة إلي الإسلام ، إنما تضمر وتنكمش حين يطغى الاستبداد ، أو يستبد الطغيان .

ولولا الاستبداد الذى استخدم الحديد والنار ، ما تمكنت العلمانية فى تركيا من فرض سلطانها على التعليم والتشريع والإعلام والحياة الاجتماعية كلها ، على الرغم من معارضة الجماهير الإسلامية الغفيرة ، والتى لم يستطع

الحكم العلمانى بعد حكم ستين سنة أن يستأصل جذورها الإسلامية ، أو يُخمد جذوتها .

ومعظم أقطار الوطن العربى – والإسلامى – قد ابتليت بفئة من الحكام عناهم الشاعر بقوله :

أغاروا على الحكم فى ليلة ففرّ الصباح ولم يرجع !

القلوب تكرههم ، والألسنة تدعو عليهم ، والشعوب تترقب يوم الخلاص منهم لتجعله عيداً أكبر ، ومع هذا يُستفتى الشعب على حكمهم ، فلا ينالون أقل من ٩٩,٩٩٩ (التسعات الخمس) المشهورة فى كثير من بلادنا ، وبلاد العالم الثالث المقهور المطحون .

إن الاستبداد ليس مفسداً للسياسة فحسب ، بل هو كذلك مفسد للإدارة ، مفسد للاقتصاد ، مفسد للأخلاق ، مفسد للدين ، مفسد للحياة كلها .

هو مفسد للإدارة ، لأن الإدارة الصالحة هى التى تختار للمنصب القوى الأمين ، الحفيظ العليم ، وتضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وتثيب المحسن وتعاقب المسىء .

ولكن الاستبداد يقدم أهل الثقة عند الحاكم ، لا أهل الكفاية والخبرة ، ويقرب المحاسيب والمنافقين ، على حساب أصحاب الخلق والدين .

وبهذا تضطرب الحياة وتختل الموازين ، وتقرب الأمة من ساعة الهلاك ، كما أشار إلى ذلك الحديث الصحيح « إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

وكما أن هناك ساعة عامة تطوى فيها صفحة البشرية كلها ، توجد لكل أمة ساعة خاصة ، يذهب فيها استقلالها وعزها ، إذا أسندت أمورها إلى من لا يرعى أمانتها ، ولا يقوم بحقها ، ولا يتقى الله فيها .

والاستبداد مفسد للاقتصاد ، لأن كثيراً من الأموال لا تنفق فى حقها ، ولا توضع فى موضعها ، بل تذهب لحماية أمن الحاكمين ، والتنكيل بخصومهم فى الداخل ، وتدبير المؤامرات لأعدائهم فى الخارج ، وتكثيف

OBEIKAN.COM

الدعاية لأشخاصهم ونظامهم ، وتغطية ما يفشل من مشروعاتهم التى لم تأخذ حقها من الدرس ، أو درست وضرب عرض الحائط بآراء الخبراء والدارسين ، وتمويل المغامرات الجنونية الحربية والسياسية لإرضاء طموح الزعيم فى فتح البلاد، وقهر العباد !

وخراب المؤسسات العامة ، وتفاقم خسائرها السنوية نتيجة سوء الإدارة، وشيوع ألوان النهب والسرقات المكشوفة والمقنعة لأموال الشعب ، وانتشار الرشوة باسمها الخاص أو باسم العمولات والهدايا والتستر على صفقات مريبة يكسب أفراد من ورائها ملايين ، ويخسر الشعب من ورائها بلايين ؟ .. والوقوع فى شراك قروض وديون لا تبنى بها صناعة ثقيلة ، ولا قواعد إنتاجية ، ولكن تنفق فى أمور استهلاكية ، لا تغنى من فقر ، ولا تقدم لغد ، وهذا كله يؤدى إلى خلق حالة من اليأس والإحباط وعدم المبالاة لدى الفرد العادى ، يؤثر فى مردود الإنتاج ، ومسيرة التنمية كلها .

يحدث كل هذا فى غيبة الحرية والشورى الحقيقية . فلا معارضة ولا صحافة ولا ضمانات ، حتى منبر المسجد نفسه لا يستطيع أن يأمر بمعروف ، أو ينهى عن منكر لأنه لو فعل كان تدخلاً فى السياسة ، ولا دين فى السياسة ، ولا سياسة فى الدين !

وإذا قرر الزعيم أمراً ، فليس من حق أحد أن يسأله : لم ؟ بله أن يقول له : لا ، فليس فى الشعب أحد مثله ذكاء عقل ، وشفافية قلب ، وحسن إدراك للعواقب ، وإحاطة بالأمر من جميع الجوانب ، فهو العلامة فى كل فن ، والفهامة فى كل شىء ! وأما من حوله فمهمتهم أن يؤمّنوا إذا دعا ، وأن يصدقوا إذا ادّعى .

ومن اجترأ واعترض فيا ويله ماذا يلقى ؟ لأنه باعتراضه يصبح عدو الحرية ولا حرية لأعداء الحرية !

والاستبداد مفسد للأخلاق ، إذ لا ينفق فى سوق الاستبداد إلا بضائع النفاق والملق والجبن والذل والخنوع ، وهى الرذائل التى تقتل العزة فى الأنفس ، والشجاعة فى القلوب ، وتميت الرجولة فى الشباب ، وفى هذا دمار الأمم ، وفى الحديث : « إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم . يا ظالـــم فقد تودع

منهم » ، فكيف إذا كان الاستبداد يلقنها كل يوم أن تقول للظالم : أيها البطل المنقذ العظيم ؟!

والحديث الشريف يقول : « احثوا فى وجوه المداحين التراب » ولكن هؤلاء المداحين المطبلين فى مواكب النفاق هم أول المحظوظين والمقربين !

والاستبداد كثيراً ما يتغاضى عن المجرم والمنحرف إذا كان من أنصاره ، فهو يظله ويستره ، فإذا انكشف حماه ودافع عنه ، ليعلم أتباعه دوماً أن ظهرهم مسنود ، وأن ذنبهم مغفور ، على نحو ما قال الشاعر قديماً :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع !

وفى المقابل يحسن الكثيرون من غيره أنصاره فلا يثابون ولا يكافؤون . وقد تعمدت أن أقول : من غير أنصاره ، لا فهم أنهم ليسوا من خصومه وأعدائه ، ولكن شعار الاستبداد دائماً : من ليس معنا فهو علينا . أكثر من ذلك : أن يأخذ القاعد المتبطل مكافأة العامل المجد ، وأن يعاقب البرئ بذنب المسئ ! وتلك هى الطامة الكبرى .

والاستبداد بعد ذلك مفسد للدين أيضاً ، لأنه يعادى التدين الصحيح الذى ينير العقول ، ويبين الحقوق ، ويقيم العدل ، ويرفض الظلم ، ويربى المؤمنين على قول الحق ، ومقاومة الباطل ، ويجرئهم على أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويعتبر أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر . وفى مقابل هذا يبارك الاستبداد التدين المغشوش ، تدين الموالد والأضرحة ، والنذور، وصيحات المجاذيب ، وحلقات الدراويش ، وما إلى ذلك من ألوان التدين السلبى ، الذى يعزل صاحبه عن المجتمع ومشكلاته والأمة وقضاياها ، وحسبه – إن كان مخلصاً – أن يبحث عن النشوة الروحية لنفسه ، تاركاً الطغيان يفعل ما يشاء ، مردداً قول من قال : أقام العباد فيما أراد !

ولهذا ترى الحكام المستبدين يحرصون على حضور احتفالات التدين الزائف ، ويدعمون مؤسساته ، ويقفون وراء المزيفين من المشايخ المتحدثين باسمها ، ليتخذوا منها أداة لضرب تيار الصحوة الإسلامية الحى المتحرك .

أما هذا التيار الإسلامى الحقيقى الحركى ، فلا يجهل أحد أنه – دون غيره من التيارات اليمينية واليسارية – لقى من مظالم الاستبداد وطغيان زبانيته، ما تقشعر من مجرد ذكره الجلود .

التيار الإسلامى وحده هو الذى قدم الضحايا بالألوف وعشرات الألوف .

هو وحده الذى امتلأت السجون بنزلائه ، وارتوت السياط من دمائه ونهشت الكلاب الحيوانية والبشرية من لحمه ، وسحقت أدوات التعذيب من عظمه ، وذهب إلى ربه من ذهب من شهدائه ، جهرة تحت أعواد المشانق أو برصاص الطغاة ، أو خفية تحت آلات العذاب ، وما ربك بغافل عما يعلمون .

ولا دواء لداء الاستبداد إلا بالرجوع إلى نظام الشورى ، والنصيحة ، الذى جاء به الإسلام ، مستفيدين من كل الصيغ والضمانات التى انتهت إليها الديمقراطية الحديثة .

وقد كتب شيخ الدعاة إلى الحرية والديمقراطية الأستاذ خالد محمد خالد فى صحيفة (الأهرام) القاهرية فى ٢٤ / ٦ / ١٩٨٥ م مقالاً رد فيه على ، الدكتور يوسف إدريس ، مؤكداً أن الشورى فى الإسلام هى الديمقراطية التى يتنادى بها الناس اليوم .

وعاد إلى الموضوع فى صيف سنة ١٩٨٦ م فى صحيفة (الوفد) ودعا التيار الإسلامى أن يعترف صراحة بهذه الديمقراطية بأركانها وعناصرها التى ذكرها وأكدها وهى :

(أ) الأمة مصدر السلطات .

(ب) حتمية الفصل بين السلطات .

(جـ) الأمة صاحبة الحق المطلق فى اختيار رئيسها .

(د) وصاحبة الحق المطلق فى اختيار ممثليها ونوابها .

(هـ) قيام معارضة برلمانية حرة وشجاعة تستطيع إسقاط الحكومة حين انحرافها .

(و) تعدد الأحزاب .

(ز) الصحافة الحرة . . لا بد من إعلاء شأنها .

وقال الأستاذ خالد : « هذا هو نظام الحكم فى الإسلام بلا تحريف فيه ولا انتقاص منه » .

وأنا أؤكد للكاتب الكبير ، كما أكد له غيرى ، أنا نرحب بكل ما ذكره من الضمانات ، ونتمسك به وندعو إليه ، وإن كنا نخالفه فى اعتبار هذا هو الإسلام ، فالإسلام نظام متميز فى منطلقاته ، وفى غاياته ، وفى مناهجه ، وهو أكبر وأعمق وأوسع من الديمقراطية ولكنا نقول بغير تردد : إن الإسلام يرحب بكل ما ذكره من عناصر ، من زوايا ثلاث :

(أ) باعتبار أن الحكمة ضالة المؤمن ، فأنى وجدها فهو أحق الناس بها .

(ب) وبناء على أن مبنـــى الشـــريعة – فيما لا نص فيه – على رعاية المصلحة ، فحيث وجدت المصلحة فثم شرع الله .

(جـ) وبناء على أن هذه الضمـانات التى وصلت إليها البشرية من خلال تجاربها ومعاناتها الطويلة مع الظلاّم والمستبدين ، أصبحت ضـــرورية ولازمة لحماية الشورى من العابثين بها ، والعادين عليها .وحجتنا فى ذلك القاعدة الفقهية الشهيرة :ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

على أننا نزيد على ذلك بأن تقرير القواعد وحده لا يكفى ، ما لم نقم بتوعية الشعب ، وتربية طلائعه على حراسة هذه القواعد ، والاستماتة فى سبيل الدفاع عنها ، وهذا ما يســتطيع التيار الإسلامى أن يقوم به أكثر من غيره ، إذا دخل الإسلام المعركة ضد الاستبداد والتسلط بقوة ووضوح .

وهنا يجب أن نوعى الجماهير ، ونربى النخبة على معان مهمة ، وقيم أصيلة ، وأحكام شرعية بينة ، طالما أخفيت عنه ، أو أهمل بيانها ودعوة الناس إليها :

(١) يجب أن تقوم التوعية والتربية على مقاومة روح السلبية والجبرية السياسية ، التى تؤمن بأن ما تريده الحكومة نافذ ، كأنه قدر الله الذى لا يرد ، وقضاؤه الذى لا يغلب ، فإن الحكومات من إفراز الشعوب ، وقد ورد فى الأثر « كما تكونوا يول عليكم » فإذا غيرنا ما بأنفسنا من الأفكار والمخاوف تغيرت حكوماتنا .

(٢) يجب أن نقاوم روح اليأس والانهزامية المميتة ، التى تشيع بين الناس: أن لا فائدة ، ولا أمل فى تغيير أو إصلاح ، وأن الذى يأتى أسوأ من الذى يذهب . فهذه الروح الانهزامية منافية لمنطق الحياة التى يعقب الله فيها

النهار بعد الليل ، والخصب بعد الجدب ، ومنافية لمنطق الكفاح الذى نهضت به الأمم ، وسادت به الشعوب ، وهى – قبل ذلك كله – منافية لمنطق الإيمان الذى يرفض اليأس ويعتبره من دلائل الكفر ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾(١) .

(٣) يجب أن نعلم الشعب أن الساكت عن الحق كالناطق بالباطل ، وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأن نحيى بين الناس الفريضة الإسلامية العظيمة : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم . وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن الأمة إذا هابت أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودع منها ، وبطن الأرض خير لها من ظهرها .

هذا مع رعاية الأدب والرفق فى الدعوة والخطاب والأمر والنهى ، اتباعا لما أمر الله به موسى وهارون حين أرسلهما إلي فرعون ، فأوصاهما بقوله : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾(٢) .

(٤) يجب أن نوعى الجماهير أن الشعوب مسؤولة مع حكامها ، إذا هى مشت فى ركابهم ، ولم تقل لهم : (لا) حيث يجب أن تقال ، فقد ذم الله قوم فرعون بقوله :﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾(٣) وقال نبى الله صالح لقومه ثمود ﴿ فَاتَّقُوْا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾(٤) .

(٥) يكمل ذلك أن يعلم كل الناس أن أعوان الظلمة معهم فى جهنم ، وان مجرد الركون إليهم موجب لسخط الله تعالى وعذابه ، ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾(٥) .

ومن هنا دان القرآن – مع فرعون وهامان – جنودهما ، لأنهم أدواتهم فى ظلم الناس ، وإرهاب الشعوب . يقول القرآن : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ ﴾(٦) ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾(٧) .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨٧ (٢) سورة طه : الآية ٤٤ .

(٣) الزخرف : آية ٥٤ . (٤) سورة الشعراء : الآيات ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(٥) هود : آية ١١٣ . (٦) سورة القصص : آية ٨ .

(٧) سورة القصص : آية ٤٠ .

حكوا عن الإمام أحمد أنه حين سجن وعذب فى محنة القول بخلق القرآن سأله سجانه عن الأحاديث التى وردت فى وعيد أعوان الظلمة ، فقال : هى صحيحة .

فقال السجان : وهل ترانى من أعوان الظلمة ؟

قال الإمام : لا . أعوان الظلمة من يخيط لك ثوبك ، أو يقضى لك حاجتك ، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم !

(٦) أن نعلم الجماهير أن الانتخاب (شهادة) والشهادة لا يجوز كتمانها ولا التخلف عن أدائها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ (١) ﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٢) فإن آفة الانتخابات فى كثير من بلادنا أن جمهرة الناس لا يذهبون للإدلاء بأصواتهم ، لاعتقادهم أن الحكومة ستفعل ما تريد !

كما يجب أن يعى الناس : أن الذى ينتخب غير الصالح ، أو ينتخب شخصاً وهناك من هو أولى منه قوة وأمانة ، وحفظاً وعلماً ، قد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين ، ولم يقم بحق (الشهادة) التى ائتمن عليها ، بل (شهد زوراً) ، وشهادة الزور من أكبر الكبائر ، حتى قرنها القرآن بعباده الأوثان ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (٣) .

وإذا كان هذا التغليظ فى الحقوق الفردية ، فهو فى حقوق الأمة أغلظ وأكبر فى الإثم ، لما يترتب عليه من تضييع الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وفيه الهلاك والدمار للأمة .

وأود أن أذكر هنا أن الطغاة والمستبدين لن يدعوا التيار الإسلامى يقوم بما يريد من توعية وتربية للأمة ، يكون حصادها التمرد على أولئك المتسلطين. ولكن إصرار المؤمنين – مع الحكمة اللازمة – سيذيب الحواجز ويتخطى كل العقبات ، لأن إرادتهم من إرادة الله ، والله ولى المؤمنين .

* *

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٣ .

(٣) سورة الحج : آية ٣٠ .

٤ - هَمُّ التغريب والتبعية

كان القرن الرابع عشر الهجرى الذى ودعته أمتنا الإسلامية منذ سنوات قلائل ، قرن الجهاد والكفاح للدفاع عن (الذات) ، والمحافظة عليها ، إزاء (الغزو الأجنبى) ، أو بعبارة أخرى : (الاستعمار الغربى) الذى زحف عليها بعساكره وجيوشه ، منتهزاً فرصة ضعفها وتفرقها واستطاع أن ينتصر عليها انتصاراً حسبه فى وقت من الأوقات نهائياً وحاسماً .

وكان دفاع الأمة عن ذاتها يتمثل فى أمرين : الدفاع عن (الفكرة الإسلامية) والدفاع عن (الأرض الإسلامية) ، فالفكرة هى رسالة الأمة ومبرر وجودها ، وهدف حياتها ، والأرض هى مشرق شمسها ومنبت بذورها ، ومجلى تطبيقها لعقيدتها وشريعتها ، ولهذا حرص الإسلام على أن تكون له (دار) حرة مستقلة ، ومن هنا كانت فرضية الهجرة إلي المدينة فى أول الإسلام، ولهذا كان الجهاد فريضة للذود عن (دار الإسلام) .

ولا غرو أن تعالت نداءات الجهاد فى كل مكان من أرض الإسلام ، لمقاومة الغزاة ، والتحرر من سلطانهم ، فإنما هى إحدى الحسنيين النصر ، أو الشهادة فى سبيل الله .

وأما أشد أنواع الصراع وأطولها وأعمقها ، فهو ما خاضته أمتنا ضد الغزو الثقافى ، وهو أخطر أنواع الغزو وأقساها .

فالغزو العسكرى يحتل الأرض ، وهذا يحتل الأنفس والعقول .

والغزو العسكرى يلمس ويحس ، فيرفض ويقاوم ، والآخر يتسلل إلى حنايا المجتمع تسلل النوم إلي الأجفان ، أو الداء إلى الأبدان .

والغزو العسكرى يقهر الشعوب بالسيف فتخضع له كارهة ، متربصة متى تتخلص منه ، والفكرى يضللها بفتنتها عن نفسها ، فتطيعه راضية مختارة ، ﴿ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١) .

والحق أن أمتنا لم تصب بمثل هذا الغزو من قبل ، على امتداد تاريخها الطويل .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٧ .

OBEIKANDL.COM

لقد عرفت فى تاريخها الفكرى تلك الأقاويل والأقاصيص الدخيلة التى دخلت إلى الثقافة الإسلامية عن طريق من أسلم من أهل الكتاب ، والنقل عن كتبهم المحرفة وعرفت باسم (الإسرائيليات) ، ولكنها – وإن لوّثت الثقافة الإسلامية وكدرت صفاءها – لم يكن لها تأثير على التصور الإسلامى لله وللكون وللحياة وللإنسان ، فبقى هذا التصور – فى مجمله – فى قرون الأمة الأولى سليماً خالصاً .

وعرفت أمتنا فى تاريخها الفكرى تأثير (الفلسفة اليونانية) بعد أن ترجمت كتبها فى العصر العباسى إلي العربية ، وإعجاب كثير من العباقرة المسلمين بها وبخاصة فلسفة أرسطو الذى أطلقوا عليه « المعلم الأول » إلى حد اتخاذها أصلاً تحاكم إليه مقررات العقيدة الإسلامية ، فإن وافقته فبها وإلا كانت محاولات (التلفيق) كما فى رسائل (إخوان الصفا) أو (التوفيق) كما فى كتب الفيلسوفين الكبيرين : الفارابى وابن سينا ، ومن بعدهما ابن رشد صاحب كتاب (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) .

ولكن التأثير الحقيقى للفلسفة اليونانية فى الفكر الإسلامى كان فى دائرة خاصة هى دائرة من يسمون (الفلاسفة الإسلاميين) ، وأما الجمهور الأعظم من علماء الإسلام فى شتى التخصصات فقد قاوموا هذا التأثير ورفضوه ، وإن لم يسلموا من تأثر به واستفادة منه فى صورة مختلفة .

وقام الإمام أبو حامد الغزالى بشن غارته علي (الفلسفة) بسلاح الفلسفة ومنطقها نفسه ، وبين فى « تهافت الفلاسفة » أخطاءهم فى عشرين مسألة ، وكفرهم فى ثلاث منها ، معروفة ومشهورة ، ولهذا أطلق عليه العلماء « حجة الإسلام » .

وجاء بعده شيخ الإسلام ابن تيمية ، فزاد عليه محاولة تنقية الثقافة الإسلامية كلها من آثار الفلسفة اليونانية ، ومن ذلك (نقض المنطق) الصورى الأرسطى الذى اعتبره الغزالى « معيار العلوم » وبين ابن تيمية فى كتابين له : أنه علم لا يحتاج إليه الذكى ، ولا ينتفع به البليد ، وبهذا سبق رواد النهضة الأوربية الحديثة التى رفضت المنطق الصورى القياسى (الأرسطى)، وقامت على أساس المنهج الاستقرائى التجريبى الذى اقتبس أصلاً من الحضارة الإسلامية ، كما شهد بذلك المنصفون .

أما الغزو الفكرى الغربى الحديث فهو شيء لم تعرفه أمتنا من قبل. فقد

أثر فى الجمهور الأعظم من مثقفى الأمة ، وغيّر نظرتهم إلي الإسلام ، وإلى الحياة ، وإلى التاريخ ، وإلى أنفسهم .

وكان له أثره البالغ فى تغيير التصور وتغيير السلوك ، وبالتالى : تغيير المجتمع كله : تربيته وتعليمه ، وفكره وثقافته ، وتقاليده ، وتشريعه ، واقتصاده ، وسياسته الداخلية والخارجية .

لقد ذكر الأستاذ « برنارد لويس » فى كتابه عن « الغرب والشرق الأوسط » أن الشرق الإسلامى قد أصيب فى تاريخه بلطمتين لم يصب بمثلهما فى تاريخه : « أولى هاتين اللطمتين : كان الغزو المغولى من أواسط آسيا التى حطمت الخلافة القائمة ، وأخضعت للمرة الأولى منذ عهد النبوة - قلب العالم الإسلامى لحكم غير إسلامى .

أما اللطمة الثانية : فهى : « تأثير الغرب الحديث » .

ورأيى أن اللطمة الثانية كانت أشد خطراً من الأولى ، فإن المغول الذين دخلوا الشرق الإسلامى غالبين ، لم يلبثوا أن اعتنقوا دين المغلوبين ، وهذه حقاً إحدى معجزات الإسلام التاريخية .

صحيح أنهم فى أول الأمر ، لم يحكموا الشريعة الإسلامية ، بل حكموا بما توارثوه عن ملكهم (جنكيزخان) الذى وضع لهم دستوراً سموه (الياسق) وهو كما قال ابن كثير : مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً ، يقدمونه علي الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولكن هذا الأمر لم يستمر بعد أن حسن إسلامهم وذابوا فى المجتمع الإسلامى . كما أن الفكر الإسلامى ، لم يتأثر به ، ولم يلتفت إليه ، واعتبره من حكم الجاهلية المرفوض بنص القرآن .

وهذا بخلاف الغزو الغربى الحديث ، فقد أثر فى الحياة كلها عن طريق التربية والتعليم : التعليم العام ، والتعليم الجامعى ، وعن طريق الصحيفة والكتاب ، ثم أجهزة الإعلام الأخرى ، وهى أبعد أثراً ، وأشد خطراً . وعن طريق الاستشراق والاستغراب . ثم عن طريق التشريع والحكم . وكان أكبر همه تكوين (الفئة القيادية) التى يريد أن يلقى عليها عبء القيادة والتوجيه

يصنعها على عينه ، مطمئناً إلى أنها لن تسير إلا فى نفس خطه ، تاركًا الجماهير فى غفلاتها وأكل عيشها .

وكان من ثمرة ذلك : ظهور « العلمانية » بمعنى فصل الدين عن الدولة والحياة . فكان لابد من « علمنة التعليم » وترك الجامعات والمعاهد الدينية القديمة (الناشزة) تموت تدريجيًا بالعزلة والاختناق .

وكان لابد من « علمنة » الاقتصاد والسياسة الداخلية والخارجية ، والحياة الاجتماعية كلها ، بحيث تسير وراء نهج الغرب ، حذو القذة بالقذة ، غير ملتزمة بمنهج الإسلام ، وروح الإسلام ، الذى يرفض (الفصام) فى الحياة والإنسان .

فالنصرانية تقبل قسمة الإنسان ، وشطر الحياة شطرين بين قيصر وبين الله، كما يقول إنجيلهم « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

أما الإسلام فيرفض هذا تمامًا ، ويعلن أن قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار ، ويرى أن رسالته للحياة كلها ، وللإنسان كله ، وأن أحكامه تشمل الدين والدنيا ، وتشرع للفرد وللمجتمع ، وأنها وحدة لا تقبل التجزئة بحال ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (١) .

كما أن تاريخ النزاع بين الدين والعلم فى الغرب ، أو بين الكنيسة وطلائع النور والحرية ، والذى انتهى بهزيمة الكنيسة – والدين الذى تمثله – أمام مواكب العلم والحرية ، وبالتالى فصل الدين عن الدولة ، الذى يعنى عزل الكنيسة عن السياسة والحكم . هذا التاريخ لا وجود له عندنا ، فالدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين ، والجامعات عندنا نشأت تحت سقوف الجوامع .

ولهذا كان عجيبًا كل العجب أن تجد « العلمانية » بمفهومها الغربى قبولاً فى المجتمع الإسلامى لولا تأثير الغزو الفكرى ، الذى غرب الأفكار والمشاعر ، فلم يعد المسلم المغزو يفكر بالإسلام ، وإن فكر للإسلام ، ولم تعد مشاعر الحب والبغض ، والولاء والعداء عنده قائمة على الإسلام .

وكان من نتائج هذا التغريب المكثف المستمر للعقل وللمشاعر وللحياة فقدان أو ضعف الشعور بالذاتية الإسلامية ، والاستعلاء الإسلامى ، أمام الغرب المنتصر وحضارته ، وبروز ظاهرة اجتماعية من أخطر الظواهر ، هى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

OBEIKAN.COM

التقليد الأعمى والتبعية المطلقة للغرب فى كل ما يصدر عنه من ماديات ومعنويات حتى نادى بعضهم جهرة بأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها ، وحلوها ومرها ما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب !

وصدق فى ذلك ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى حين قال : « لتتبعن سنن من قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وفى بعض الروايات : التعبير بـ « فارس والروم » بدل اليهود والنصارى .

والحديث ينكر على الأمة أن تفقد هويتها وأصالتها ، إلى حد تغدو فيه ذيلاً تابعاً للآخرين من أصحاب الديانات السابقة ، أو أصحاب الحضارات السائدة ، وفارس والروم لا يوجدان اليوم بهذا الاسم والعنوان ، ولكن معناهما موجود فى الدولتين العظميين اللتين تمثلان : المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى، كما كانت فارس والروم عند ظهور الإسلام .

ويعبر الحديث عن مدى هذه التبعية الذيلية بقوله : « شبراً بشبر » ، « وذراعاً بذراع » .. ويضرب « جحر الضب » مثلاً لهذا النوع من الاتباع الأعمى فجحر الضب يعتبر أسوأ صورة للالتواء والضيق والظلمة وسوء الرائحة ، ومع هذا لو دخل أولئك « المقلدون » هذا الجحر الكريه لدخله وراءهم المقلدون . وبتعبير عصرنا : تظهر « مودة » جديدة جذابة تعلن عنها الصحافة والإذاعة والتلفاز ، تسمى « مودة جحر الضب » ! .

هذا مع حرص الإسلام البالغ فى تشريعاته وتوجيهاته ، على أن تظل الشخصية المسلمة مستقلة متميزة فى مخبرها وفى مظهرها ، حتى لا يسهل ذوبانها فى غيرها ، وبالتالى تفقد خصائصها ومشخصاتها . وهذا معنى الدعاء اليومى المتكرر للمسلم فى صلاته ، سبع عشرة مرة على الأقل ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

وفى هذا ألفّ شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه القيم « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » .

لم تضع جهود التغريب سدى ، بعد أن وجد من أبناء المسلمين من

---

(١) سورة الفاتحة : الآيتان ٦ ، ٧ .

يتنكر للإسلام ، وبعد أن عزل الإسلام عن قيادة المجتمع وتوجيهه ، وكل ما تفضلوا به عليه إنما هو (ركن) أو (زاوية محدودة) تأخذ عنوان (الدين) فى بعض أمور الحياة .

ففى التشريع سلب الإسلام حقه أن يكون مصدراً للدستور والقوانين المختلفة ، وتركت له منطقة (الأحوال الشخصية) . وحتى هذه عدَوْا عليه فيها ، وأخذت منه كلياً أو جزئياً ،كما فى تركيا وبعض البلاد العربية ، ولا زالت بلاد أخرى تعمل قوى التغريب فيهـا جاهدة لمنع الطلاق وتعدد الزوجات ، وإعلاء المرأة على الرجل .

وهكذا تجد كل ما فى أجهزة الإعلام من إذاعـة أو تليفزيون (ركناً للدين) أو (زاوية) يتمثل فى قراءة القـرآن ، أو فى حديث دينى يومـى ، أو أسبوعى ، يوضع عادة فى وقت ميت بحيث لا يسمع أو لا يرى !!

وأما فى الصحافة فنجد – فى معظم بلاد المسلمين – كل ما للإسلام فيها صفحة أو بعض صفحة فى كل يوم جمعة تسمى « الصفحة الدينية » ، فهى صفحة (دينية) ، وقلما ترتقى لتكون (إسلامية) بحق . وإذا ذكر فيها الإسلام ، فهو (الإسلام المستأنس) الذى يعيش به الناس فى الماضى أكثر من الحاضر ، ويعلمهم أن الحاكم إذا أحسن فعليهم الشكر ، وإذا أساء وطغى فعليهم الصبر ... !! وفى المدرسة ومؤسسات التربية والتعليم نجد للدين حصة ، كثيراً ما تكون فى آخر اليوم الدراسى بعد أن يكون الطلاب والمعلمون قد تعبوا وسئموا ، وغالباً ما تتخذ للراحة من عناء اليوم المدرسى ، وكثيراً ما يكون الدين فيها (موجهاً) مطعّماً بكل ما يؤيد النظام والسلطان !

وفى جهاز الحكومة حسب الإسلام أن يكون له وزارة أو جزء من وزارة تشرف على الأوقاف والشؤون الدينية ، كثيراً ما تكون رسالتها مباركة الواقع الماثل ، ومساندة الحكم القائم ، وإعطاءه سنداً من الشرع ، وإن حاد عن الشرع!

وهكذا تعمل قوى التغريب دائماً على حصر الإسلام : (مكانياً) فى المسجد ، و (زمانياً) فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وشهر رمضان من كل عام ، و(حياتياً) فى مجرد إقامة الشعائر دون التأثير فى الحياة بالتشريع والتوجيه ، والقضاء والتنفيذ ، وصبغ المجتمع بصبغة الإسلام ، وإشرابه روح الإسلام .

بيد أن من الحق أن يقال : إن الفكر الإسلامى لم يعدم يوماً من يقف فى وجه هذا الفكر الغـربى الزاحف ، وفى وجه دعاته وعملائه أو عبيده فى ديارنا ، بل وجد من أفذاذ المسلمين من تصدى له وجهاً لوجه ، يدفعون شبهاته ، ويردون مفترياته ، ويكشفون عن عوراته ، ويزيلون الصدأ والغبار عن كنوز الإسلام ، وقيمه وتراثه العريق ، ويعيدون للمسلمين الثقة بسمو الإسلام ، وكمال الإسلام ، وصلاحيته لكل زمان ومكان .

رأينا من هؤلاء جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ، وشبلى النعمانى .

ومن بعدهم رشيد رضا ، ومحمد إقبال ، وسليمان الندوى ، ومصطفى صادق الرافعى ، وشكيب أرسلان ، وحسن البنا ، وأبو الأعلى المودودى ، وعبد الحميد بن باديس ، والبشير الإبراهيمى ، ومصطفى السباعى ، وعبد القادر عودة ، وسيد قطب ، وعباس العقاد ، وغيرهم ممن قضى نحبه وممن ينتظر.

وأوضح دليل على ذلك : الثروة الطائلة التى حفلت بها المكتبة الإسلامية الحديثة فى العقيدة والتشريع ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والدعوة والسيرة ، والتاريخ والحضارة ، وغيرها من مختلف مجالات الفكر الإسلامى . بالإضافة إلى العشرات ، بل المئات من رسائل الماجستير والدكتوراة فى شتى جوانب الدراسات الإسلامية .

ولا غرو أن أثرت هذه الحركة الفكرية الإسلامية فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها وإن بقى عدد غير قليل من دعاة التغريب ، وعبيد الفكر الغربى فى أرضنا . وبعض هؤلاء عملاء مأجورون ، أو حاقدون مكشوفون ، ومثلهم لا يرده إلى الأصالة الإسلامية ألف برهان وبرهان .

وكان من أثر ذلك تصايح الرأى العام الإسلامى – فى جملة من الدول المنتسبة إلى الإسلام – بوجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ، واتخاذها مصدر الدستور والقوانين .

ومناداته كذلك باعتبار الدين مادة أساسية فى جميع مراحل التعليم العام ، وتدريس (الثقافة الإسلامية) فى المرحلة الجامعية .

وقد رأينا من المستشرقين من بدأ يراجع نفسه فيما كتب ، ومن يقف وقفة مستأنية قبل أن يكتب ، لأنه يعلم أن المسلمين أصبحوا يقرؤون .

ومنهم من رد على سابقيه من المستشرقين، لأنه تبين له ما لم يتبين لهم ، وقد بات بعض ما كان من « المسلّمات » لدى المستشرقين قديماً ، فى عداد الأباطيل اليوم .

ورأينا من المستغربين – ممن كانوا عبيد الفكر الغربى بالأمس – يعودون إلى الساحة الإسلامية معتذرين إلى الله وإلى المؤمنين عما بدر منهم من قبل . وآخرين يحاولون الاقتراب من الفكر الإسلامى ، بالكتابة عنه ، أو الثناء عليه ، أو الرد على خصومه ، قد يكون هذا اقتناعاً منهم وتصحيحاً لمسارهم ، وقد يكون تملقاً للرأى العام الإسلامى المتزايد يوماً بعد يوم .

ورأينا الفكر الإسلامى ذاته يتجاوز مرحلة الدفاع وأسلوب الاعتذار عن الإسلام الذى صبغ إنتاجه عدة عقود من السنين – إلى مرحلة المواجهة والهجوم والانطلاق من موقع القوة والأصالة والاعتزاز .

مع هذا ، لا ننكر أن فئات من أبناء وطننا العربى والإسلامى ، لازالت خاضعة بقدر أو بآخر ، لفكر الغرب ، بشقيه الليبرالى والماركسى ، ولا زال لكل منهما أحزاب سياسية وأيديولوجية تنطق باسمه ، وتنادى به أساساً لحياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

لا زالت هناك دول وحكومات تقوم على تبنى هذا الفكر أو ذاك ، على تفاوت بينها فى مدى ما تعترف به للإسلام من حق فى توجيه بعض الزوايا للحياة أو التشريع لها .

* *

• ألوان أخرى من التبعية :

على أن هناك ألواناً أخرى من التبعية خلفها الاستعمار ، غير التبعية الفكرية والثقافية لها خطرها وأثرها .

منها التبعية التشريعية التى جعلت قوانيننا صورة منقولة من القوانين الغربية بغض النظر عن مخالفتها لعقيدتنا وشريعتنا وقيمنا وأعرافنا وتقاليدنا التى استقرت عليها حياتنا الاجتماعية ، ثلاثة عشر قرناً .

وهذا ما جعل تيار الصحوة الإسلامية اليوم فى كل أنحاء العالم العربى والإسلامى ، ينادى بضرورة التحرر من ربقة القوانين الوضعية التى خلفها

OBEIKAN.COM

الاستعمار ، والعودة إلى أحكام الشريعة الإسلامية . والمعركة حامية الوطيس ، والمفروض أن تحسم لحساب الإسلام ، ما دام هذا هو مطلب الجماهير .

ومنها : التبعية الاجتماعية : تبعية التقاليد التى تجعل المسلم أو المسلمة أسيرة لتقاليد غريبة كل الغرابة ، وكل الغربة ، على مجتمعاتنا ، مثل تقاليد الشرب والرقص والاختلاط بغير حدود فى الاحتفالات ، والتقاليد المتعلقة بالزى والزينة ، ونحوها ، من كل ما يمسخ شخصيتنا ويجعلنا نحاكى الغرب محاكاة القرود .

ومنها التبعية الاقتصادية : وهى التى تجعلنا ندور فى فلك الاقتصاد الغربى ننتج ما يريد لنا أن ننتجه ، ونستهلك ما يريد لنا أن نستهلكه ، وهو لا يريد لنا أن ننتج من الصناعات المدنية والحربية ما يجعلنا نستغنى عنه ، وعن استيراد سلعه ومصنوعاته . فإذا سمح لنا أن ننتج شيئًا كان ذلك بإشرافه وهيمنته ، هو الذى يخطط ، وهو الذى ينفذ ، وهو الذى يستفيد ، بحيث نظل مربوطين بعجلته ، فالأجهزة من عنده ، والخبراء من عنده ، وقطع الغيار من عنده . وهكذا .

كما أنه يريد لنا أن نتوسع فى استهلاك كل ما يصنعه ، وكثير منه مما يمكن أن يستغنى عنه ، وكثير آخر مما يجلب الضرر على المدى القصير ، أو المدى الطويل ، وبعض آخر هو من أسباب الدمار للأمم . وهو يغرينا بذلك بوسائله التى يعجز (إبليس) عن مثلها ، ويفتح لنا أبوابًا بعد أبواب ، وحاجات تلو حاجات ، وما قصر عنه جهدنا ومواردنا – وهى قاصرة لا محالة – ييسر لنا سبيل الاقتراض منه ، والاقتراض معناه (الربا) الملعون آكله وموكله ، الربا المؤذن بحرب من الله ورسوله .

ومع هذا أوقعنا فى الفخ ، فى مصيدة الديون الربوية ، التى يجر بعضها إلى بعض ، ويسلم كل دين منها إلى آخر بعده ، وكثيراً ما نتورط فى دين جديد لتسديد فوائد دين قديم وأقساطه . وصدق قول الشاعر :

إذا ما قضيت الدين بالـــــدين لم يكن
قضاء ، ولكـــــن كان غرمًا على غرم !

* *

٥ – هَمُّ التخاذل أمام إسرائيل

إن هَمَّ التخاذل والاستسلام أمام الاغتصاب الصهيونى ، والخطر الإسرائيلى ، هم كبير وجسيم يزداد كبراً وجسامة بمضى الأعوام .

ذلك لأننا وهنا ودعونا إلى السلم فى مواجهة قوم قام كيانهم كله على الحرب والعدوان حتى حرف بعض منا كلم القرآن عن مواضعه ، فزعم أنهم جنحوا للسلم فلنجنح لها ، ولنتوكل على الله ! وما جنح القوم لها يوماً .

وكان علينا أن نعرف عدونا على حقيقته ، كما هو ، لا كما نريده أن يكون .

ومصادر معرفته كثيرة وميسورة ، منها : كتاب ربنا القرآن الكريم .. وكتبهم المقدسة نفسها التى وصفتهم بما وصفت .. وتاريخهم معنا من قديم ، ومع العالم كله .. وواقعهم الحاضر معنا منذ أرادوا أن يقيموا وطناً لهم على أنقاضنا .. وما يكتبونه عن أنفسهم .. وما يكتبه الآخرون عنهم ، وهو شىء كثير .

إننا لسنا قليلاً فى العدد ، ولكننا – كما جاء فى الحديث النبوى – كثرة كغثاء السيل ، والغثاء ، ما يحمله السيل من حطب وورق ، وأعواد وغيرها ، مما يتصف بالخفة والسطحية وعدم التجانس وفقدان الهدف .

كما أشار هذا الحديث إلى أن الوهن الحقيقى يبدأ داخل الأنفس ، وإن كان معها العتاد والسلاح ، إنه حب الدنيا وكراهية الموت ! .

لقد أسقط إخواننا المجاهدون الأفغان بصمودهم العبقرى حجة أولئك الذين يقولون : ماذا نستطيع أمام القوى العالمية ؟

أجل ، أثبت الذين بدأوا جهادهم ببضع بنادق عتيقة ، ثم غنموا السلاح بعد ذلك من عدوهم : أن الإيمان خليق أن يصنع العجائب وأن يجعل من الأميين وأشباههم قوة تحتار فى أمرهم الدولة الكبرى الثانية فى العالم [١] .

---

(١) وكما أثبت ذلك (جيل الحجارة) من أبناء فلسطين فى حركة المقاومة الشعبية الإسلامية الباسلة التى أقضت مضاجع إسرائيل .

OBEIKAN.COM

كما أثبت الصائمون القائمون فى حرب العاشر من رمضان أن إسرائيل ليست كما زعموا القوة التى لا تقهر ، فقد استطاعوا أن يعبروا القناة ، ويقتحموا خط بارليف ، ويقهروا القوة المزعومة .

وقديمًا قالوا عن التتار مثل ما قالوه حديثًا عن إسرائيل ، قالوا : إذا قيل لك : أن التتار قد انهزموا فلا تصدق .

وبعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ وانتشار الرعب فى العالم كله من هؤلاء الغزاة الجدد المدمرين ، رفض القائد المملوكى سيف الدين (قطز) تهديد قائد التتار ، وإنذاراته التى تقذف بشر الوعيد والتهديد ، بل بادر بقتل رسله إليه ، على غير ما عرف من سنة المسلمين ، إيذانًا بأن لا سبيل غير الحرب ولا بديل للصدام المسلح .

وكان اللقاء التاريخى الحاسم فى ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ فى معركة (عين جالوت) وسجل التاريخ النصر لقطز وجنوده من أبناء مصر على جيوش التتار ، ولم يمض على سقوط بغداد إلا عامان ! .

كان مفتاح النصر فى تلك المعركة كلمة قطز التى أطلقها كالقنبلة المدوية (وا إسلاماه) !

إن معركتنا مع إسرائيل فى جوهرها معركة دينية ، وإن اتخذت أبعادًا سياسية واقتصادية وقومية .

بل إن القومية فى النظرة اليهودية الأصيلة ، ممتزجة بالدين امتزاج الجسم بالروح ، فلا معنى للقومية عندهم بغير دين ، وعندهم ثالوث مقدس ممتزج بعضه ببعض : الإله .. والشعب .. والأرض .

وليس من المنطق ولا من الأمانة ، ولا من المصلحة إخراج الإسلام من المعركة مع الصهيونية ، تحت دعاوٍ لا يسندها علم ولا برهان ، إلا مخاوف ومجاملات .

والنتيجة أن ندخل المعركة مع العدو وهو مسلح بتعاليم التوراة وندخلها نحن مجردين من تعاليم القرآن .

أكد زعماء اليهود (دينية) قضيتهم قبل قيام إسرائيل ، وبعد قيامها ، فمنذ أواخر القرن الماضى قال هرتزل : إن العودة إلي صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية .

OBEIKAN.COM

وما أحرانا أن نقول : إن العودة إلى فلسطين يجب أن تسبقها عودة إلى الإسلام ، وما زال زعماء إسرائيل إلى اليوم يقودون أتباعهم بوعود التوراة ، وأحلام التلمود . وأقوالهم فى ذلك لا تحصى .

فماذا صنعنا نحن فى مواجهتهم ؟

لقد قال الخليفة الأول أبو بكر الصديق لقائده المظفر خالد بن الوليد فى إحدى وصاياه : حارب عدوك بمثل ما يحاربك به : السيف بالسيف والرمح بالرمح .

وهذا منطق لا غبار عليه من الوجهة العسكرية المحضة . فإذا كان عدونا يحاربنا بالدين حاربناه بالدين أيضًا . فإذا جند عدونا جنوده باسم « يهوه » إله إسرائيل جندنا جنودنا باسم الله رب العالمين . وإذا دفع جنوده باسم اليهودية . دفعنا جنودنا باسم الإسلام ، وإذا قاتلنا بالتوراة قاتلناه بالقرآن . وإذا جاءنا تحت لواء موسى ، جئناه تحت لواء موسى وعيسى ومحمد ، فنحن أولى بموسى منهم . وإذا ذكروا نبوءات « أشعيا » ذكرنا نحن أحاديث البخارى ومسلم .

وإذا حاربنا من أجل الهيكل حاربناه من أجل المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله .

وإذا قال عدونا لجنوده : أنتم شعب الله المختار ، قلنا لجنودنا : أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وبهذا نكون نحن المتفوقين ، لأننا أصحاب الدين الأقوى ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

لابد من التعبئة الإيمانية للأمة إذا أردنا النصر . ولا تتم التعبئة الإيمانية إلا بالتعبئة الأخلاقية ، فالأخلاق ثمرة الإيمان وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا ولا إيمان لمن لا أمانة له ولا عهد لمن لا خلق له .

فإذا لم نرب فى الأمة معانى الخشونة والتضحية والصبر على المكاره ، والانتصار على الشهوات والاستعلاء على الغرائز ، والعفة عن الحرام ، والبعد عن الميوعة والطراوة وأخلاق المخنثين ، والمتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال – فهيهات أن نصمد فى وجه العدو أو نصبر على حر المعركة ، أو نحتمل شظف الجهاد .

إن أمتنا انتصرت قديمًا على اليهود وطهرت جزيرة العرب من شرهم ، لأنها كانت الأمة الأقوى إيمانًا وأخلاقًا .

كان اليهود أحرص الناس على الحياة – كما وصفهم القرآن [١] – وكنا أحرص الناس على الموت فى سبيل الله .

كانوا – كما وصفهم الله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [٢] وكنا كما خاطبنا الله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [٣] .

كانوا كما خاطبهم القرآن : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [٤] . وكنا كما وصف الله المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [٥] .

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وكنا كما خاطبنا ربنا ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٦] .

كانوا يعبدون الذهب . حتى أنهم عبدوا عجلاً اتخذ من حلى وكنا نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا ، ولا أحدًا .

كانوا كما خاطبهم الحق تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾[٧] . وكنا كما خاطبنا جل جلاله ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾[٨] .

كانوا يأكلون الربا وقد نهوا عنه ويأكلون أموال الناس بالباطل ، وكنا نحرم الربا قليله وكثيره . ونخاف الدرهم الحرام ، واللقمة الحرام ، فإن كل ما نبت من حرام فالنار أولى به .

كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وكنا نحن حماة الرسالات ، والذائدين عن حمى الدعوات .

أما الآن فقد تغيرت أنفسنا عما كانت عليه ، وأصابنا رذاذ من أخلاق اليهود ورذائل اليهود ، الحرص على الحياة .. التفرق ، القسوة ، الأنانية ، تحريف الكلم عن مواضعه ، الإيمان ببعض الكتاب دون بعض .. أكل الربا ، قتل الدعاة إلى الله ، السكوت على الفساد ، وعدم التناهى عن المنكر .

---

(١) فى الآية ٩٦ من سورة البقرة : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ .
(٢) سورة الحشر : آية ١٤ .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .
(٤) سورة البقرة : آية ٧٤ .
(٥) سورة الأنفال : آية ٢ .
(٦) سورة آل عمران : آية ١١٠ .
(٧) سورة البقرة : آية ٨٥ .
(٨) سورة آل عمران : آية ١١٩ .

OBEIKAN.COM

فاستوينا مع اليهود فى الرذيلة والمعصية ، وكان لهم الفضل علينا فى مجالات أخرى : فى التخطيط والتنظيم وحسن التعبئة لكل القوى المادية والبشرية .

بل أقول : إن اليهود قد سرقوا بعض أخلاقنا وبعض فضائلنا ، فى الوقت الذى نقلوا هم إلينا رذائلهم القديمة ، أو نقلناها نحن راضين مختارين ، بعد أن حقنونا بالحقن الفكرية المخدرة التى تجعلنا نستسلم لكل ما يصنعونه لنا من أزياء و « مودات » لنسائنا مما عند الركبة ، وفوق الركبة ، وما فوق فوق الركبة .. ومن تقاليع تدمِّر شبابنا ، وتميت فيهم كل روح للخشونة والجهاد . إلى جوار (المودات) الفكرية التى لا تعرى السيقان أو الأذرعة ، بل تعرى الرؤوس من الفكر ، والقلوب من اليقين .

إن اليهود الذين عرفوا بعبادة الذهب أصبحوا يبذلون الملايين عند الحاجة لتحقيق فكرتهم وبناء دولتهم . وأغنياؤنا مشغولون بالرحلات المترفة إلى أوروبا وغيرها حيث ينفقون مئات الألوف على اللهو والفراغ والعبث والمجون أو الدعاية الجوفاء ، فإذا طالبتهم ببذل دفعوا لك دراهم معدودات ، لا تسمن ولا تغنى من جوع !! .

إن اليهود « الجبناء » قد دربوا أبناءهم – بل وبناتهم – على أن يكونوا جميعاً حين يدوى النفير جيشاً مقاتلاً – لا يتخلف منهم أحد ، وأبناؤنا وبناتنا– نحن المهزومين – مشغولون بتوافه الأمور ! .

فلا غرابة بعد ذلك إذا خذلتنا رذائلنا ، وانتصر اليهود علينا ، فإنما هو انتصار للقوة على الضعف ، وللنظام على الفوضى . وللبذل على البخل ، وللجد على الهزل . وللعمل على الفراغ .

إن الإسلام يستطيع أن يصنع الكثير والكثير ، فى معركتنا مع العدو الصهيونى المتغطرس إذا جعلنا قضية فلسطين (قضية إسلامية) فهى قضية كل مسلم فى المشرق والمغرب .

إنه القادر على أن يشحذ العزائم ، ويعبىء القوى ، ويجمع الصفوف حينما ينادى المنادى : الله أكبر ، الله أكبر ! وحينما ينشد الجندى : يا رياح الجنة هبى ! .

إنه القادر على أن يحشد مائتى مليون من العرب ، ووراءهم نحو تسعمائة مليون من المسلمين فى أنحاء العالم ، يذكرون فلسطين كلما ذكروا الإسراء والمعراج أو ذكروا المسجد الأقصى .

ولقد رأينا بأعيننا ما يمكن أن تفعله كلمة الإسلام فى دنيا السياسة ، حين انطلق الملك فيصل بن **عبد العزيز** – **رحمه الله** – وخاطب باسمها الدول الإفريقية المسلمة وعرف الناس **صدقه ونقاءه ، فقطعوا** علاقتهم بإسرائيل دولة بعد دولة .

إن الإسلام هو الحل ، ولكنا لا نريده ، لماذا ؟ الجواب يطول .

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمـــــول !

* *

OBEIKAN.COM

٦ – هَمُّ التفرق والتمزق

لقد مر على الوطن العربى قرون كثيرة كان فيها جزءاً من دولة كبرى ، بل كان عقلها المفكر ، أو قلبها النابض ٠

كان هكذا فى عهد الراشدين ، وفى عهود الأمويين والعباسيين والعثمانيين حتى زحف الاستعمار الغربى على دار الإسلام ، واقتسم بلاد الخلافة (تركة الرجل المريض) كما كانوا يسمونها ، ووزع الوطن العربى – قلب الخلافة العثمانية – بين المستعمرين كما توزع الغنائم والأسلاب ، فلإنجلترا : مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين وبلاد الخليج (ما عدا السعودية) ٠ ولفرنسا : سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش (المغرب) ٠ ولإيطاليا : ليبيا والصومال وإرتيريا ٠

المهم أن هذه التجزئة أو هذا التفتيت للوطن العربى ، قد أصبح حقيقة سياسية ٠ تغذيها مشاعر (الوطنية) المستوردة ، التى لم يكن يعرفها المسلمون من قبل ، حيث لم يكن الولاء للإقليم وارداً فى ذهن المسلم ، إنما كان ولاؤه للإسلام ، ودفاعه عن (دار الإسلام) ٠

وساعد على تأجيج هذا الشعور وإلهابه حركات المقاومة ، التى قامت بها الشعوب ضد تسلط المستعمر الأجنبى ٠

وما أن نالت استقلالها وتحررها من نير المحتل الأجنبى ، حتى نسيت أنها كانت مع أخواتها كياناً أو جزءاً من كيان واحد كبير ، ووجد كثيرون مصالحهم فى استبقاء هذا التقسيم ، مبررين ذلك بدعوى الوطنية والولاء للوطن ٠

وانتهى الأمر بأن أصبح فى هذا الوطن الواحد – الذى كان جزءاً من وطن واحد أكبر – يضم أكثر من عشرين دولة ، كل دولة لها اسمها وعلمها ودستورها وجيشها وتمثيلها ٠٠ الخ ٠

وغدونا ننظر إلى خريطة العالم فنجد دولاً منها ما يزيد تعداد إحداها عن ألف مليون نسمة كالصين ، ومنها ما قد يصل إلى سبعمائة مليون كالهند ، ومنها ما يقارب الثلاثمائة كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ٠

ولكن إذا جئنا إلى خريطة الوطن العربى ، نجد فيها دولاً تكاد تحتاج إلى المجهر حتى تراها على الخريطة المصغرة ٠

وليتها حين تعددت لسبب أو لآخر ، ولم تستطع أن تتوحد فيما بينها – وهو ما ترجوه شعوبها من زمن طويل – تقاربت وتضامنت تضامناً حقيقياً ، يتصاعد ويقوى يوماً بعد يوم ، حتى يستحيل إلى وحدة فعلية .

ولكنها – للأسف كما هو واقعها اليوم – تتباعد وتتجافى فيما بين بعضها وبعض إلى حد المقاطعة السياسية ، بل الحرب الإعلامية ، بل الحرب العسكرية فى بعض الأحيان . وبعد أن كنا نتحدث عن الصراع العربى الإسرائيلى ، أصبح جل حديثنا عن الصراع العربى العربى ! .

وحسبنا ما يجرى فى لبنان من أنهار الدماء ، من أكثر من عشر سنوات ، دون أن يستطيع العرب وقف هذا النزيف .

بل عجز العرب عما دون ذلك ، وهو أن يعقدوا مؤتمراً للقمة يحاولون به تقريب الصفوف ، وتهدئة الأمور ، وإن لم يعالج القضايا من جذورها .

لقد قال شوقى : « إن المصائب يجمعن المصابين » والعرب تحل بهم مصائب كبيرة ، وهموم من كل صوب ، وتكفى مصيبة إسرائيل وحدها ، لتجمع شملهم ، وتوحد كلمتهم ، ولكنهم ازدادوا فرقة واختلافاً . وانعكس هذا على فصائل المقاومة الفلسطينية حتى قاتل بعضهم بعضاً .

بل إن البلدين العربيين المتجاورين ، اللذين يحكمهما حزب واحد ، (يسارى تقدمى !) بينهما من الجفاء والعداء والتربص ما لا يخفى على أحد .

بل البلد الواحد الذى يحكمه حزب واحد ، انقسم على نفسه ، وبات (الرفقاء) يقاتل بعضهم بعضاً بالطائرات والدبابات ، كما رأينا فى اليمن الجنوبى .

إن هذا التفتت أو التمزق الذى تعانيه أمتنا قد أصاب الوطن العربى كله بالضرر البالغ فى جميع نواحى الحياة ، وعلى كل الأصعدة : سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وتكنولوجياً .

فعلى صعيد السياسة : لم يعد لنا وزن دولى ، لأن وزننا فى وحدتنا ، وليس لدولة منا وحدها وزن مؤثر فى المحيط العالمى الذى توجهه الكتل الكبيرة .

بل كان تفرقنا سبباً فى ضعف كل منا بمفرده ، فذهب يبحث عمن

يقوى به فى معسكرات الشرق أو الغرب ، وأدى هذا إلى أن يكون منا موالون للغرب ، وآخرون موالون للشرق ، ولكل من الفريقين سياسات لا يقبلها الفريق الآخر .

بل رأينا القضايا التى تشبه أن تكون بديهية لا تحتمل الخلاف ، نختلف فيها ، مثل قضية الغزو السوفييتى لأفغانستان ، فهذا مرفوض بكل المقاييس ، ولكن وجدنا من الدائرين فى فلك السوفييت من يؤيد الغزو الأحمر ، ويدين المجاهدين الأبرار الذين بيضوا ببسالتهم وجه الإسلام .

وعسكرياً : عجزنا – ونحن مائة وخمسون مليوناً – عن مواجهة إسرائيل، ذات الثلاثة ملايين ! .

وقد سئل أحد العرب الحصفاء سنة ١٩٦٧ م : كيف هزمتم أمام إسرائيل وأنتم عشرون دولة ؟! فقال بحق : **هزمنا ، لأننا عشـــرون دولة أمام دولة** واحدة !!.

لقد تخاذلنا حتى توهم بعضنا أنه يمكنه أن يحل مشكلته بنفسه بصلح منفرد عن الآخرين ، وليحترق الباقون . وهو وهم عريض ، وتفكير مريض ، إنما هو تقسيم للمعركة إلى مراحل ، وكل فريق له يومه الآتى لا ريب فيه ، ويومئذ يوفى حسابه ، المهم ألا يقف الجميع صفٌّ واحداً ، كما حثهم الله فى كتابه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(١) .

واقتصادياً : لم نستطع أن نقيم تكاملاً فيما بيننا ، ونحقق اكتفاء ذاتياً فى أبسط الأشياء وهى المواد الغذائية ، وفى الصناعة لم نقدر على إقامة صناعة ثقيلة مدنية أو عسكرية ، بل لم نحقق ما هو أقل من ذلك ، وهو صناعة المحرك (الموتور) فى حين أن بلداً كالهند صنع السيارة ، بل صنع الطائرة ، بل صنع – أكثر من ذلك – القنبلة النوويـة . إن (الكم) أو العدد ، أو الكثافة البشرية، شرط مهم لقيام صناعات كبرى ، ولهذا يمكننـا أن نقيم بالاتحاد والتضامن ما نعجز عن إقامته متفرقين .

و (**تكنولوجيًا**) : لم نزل فى ألف باء التكنولوجيا ، وما قلناه فى شأن

---

(١) سورة الصف : الآية ٤ .

OBEIKAN.COM

الاقتصاد ، نقوله فى شأن التكنولوجيا ، إننا لا نستطيع أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورة آحاداً متفرقين ، بل إنما ننجح إذا دخلناها كالمقاتلين صفاً كالبنيان المرصوص .

إن الموقف ردئ كل الرداءة ، ولا علاج له إلا بالعودة إلى الإسلام الصحيح ، إن العرب لا يجتمعون إلا على رسالة يعتصمون بحبلها ، تجندهم وراءها صفوفاً كما جندتهم نبوة محمد ﷺ .

وإذا كان بعض الأحزاب العربية يرفع شعار « أمة واحدة ذات رسالة خالدة » فلن تتحد هذه الأمة على غير القرآن ، ولا يستطيع أحد أن يخترع لها رسالة غير رسالة الإسلام .

إنها الرسالة التى هدتها من ضلالات الجاهلية وأخرجتها من الظلمات إلى النور ، ونقلتها من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

كما قال ربعى بن عامر رضى الله عنه .

وهى التى خلدت ذكر العرب فى العالمين ، وجعلت لهم لسان صدق فى الآخرين ، وهى لا تزال رسالتهم إلى العالم ، نزل كتابها بلسانهم ، ونشأ رسولها من بينهم ، والإيمان بها والحماس لها هو - وحده - الذى يرأب صدعهم . يقول القرآن : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

إن التيار الوحيد الذى يمكنه أن يحوز الأغلبية التى تقارب الإجماع ، هو تيار الوسطية الإسلامية .

إنه وحده القادر على أن يحشد الجماهير المؤمنة العريضة فى ساحته ، وأن يجندها لتمضى خلفه ، متناسية ما بينها من فوارق .

وهو وحده الذى يستطيع أن يجمع أغلبية النخبة من خلفه إذا تحررت من أغلال الغزو الثقافى ، وهو يكسب يوماً بعد يوم منها أعداداً غير قليلة .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

وهو وحده القادر بمنهجه المتوازن على أن يجمع العرب المختلفين ، حيث يؤمن الجميع بأصوله الربانية .

إن الاجتماع على الشريعة منهاجًا – بعد الاجتماع على العقيدة ، منبعًا وأساسًا من شأنه أن يجمع الكلمة الشتيتة ويوحد الصف المفترق .

أما الإعراض عن الإسلام وشريعته ومنهاجه ، واتخاذ مناهج وضعية بشرية، فهو جدير أن يفرقنا شيعًا ، ويجعلنا طرائق قددًا : فئة تتجه إلى اليمين، وأخرى تتجه إلى اليسار ، واليمين درجات ، واليسار درجات ، وبينهما مسافات ومسافات من يمين اليمين إلي يسار اليسار ، ولكل منهم قبلة يرضاها ، وجهة يتولاها ، ولهذا لا يتصور مع هذه التعددية المتنافرة المتباعدة المتناقضة ، أن تتحد الكلمة وهو ما حذر منه القرآن حين قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

* *

● سؤال وجوابه :

قد يقول قائل : إننا نوافقكم على أن الاعتصام بحبل الإسلام ، واعتماده منهاجًا للحياة ، يقضى على أنواع من التفرق ، ولكنه يخلق تفرقًا من نوع آخر.

إنه يقضى على التفرق إذا كان منشؤه العصبية العرقية ، أو العصبية الإقليمية ، أو التناقضات الأيديولوجية ، أو الأهواء السياسية ، حين يحكم الجميع منهج الإسلام ، وأخوة الإسلام ، وأخلاق الإسلام .

وهو – وإن كان صعب المنال – أمر متصور ، إذا سرت روح الإسلام ، وهبت ريح الإيمان ، نتيجة التوجه الصادق ، والتوجيه الدؤوب ، والتربية المستمرة .

ولكن لا ننسى أن هذا الالتزام بالإسلام ، سيثير عصبيات واختلافات أخر غير تلك التى تحدثتم عنها . ونعنى بها عصبية الأقليات الدينية ، طائفية ومذهبية وفكرية .

ففى بلد كمصر مثلاً ، يثير الحكم بالإسلام عصبية الأقباط المسيحيين ،

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٣ .

OBEIKAN.COM

وفى السودان عصبية الجنوبيين ، وفى بلاد كالخليج ، يثير الحكم الإسلامى عصبية الشيعة على الأغلبية السنية .

وغير هؤلاء وأولئك سيثير الحكم الإسلامى خلافات المعارضين ، للاتجاه الفكرى السائد ، فإذا افترضنا أن الاتجاه الذى قاد وحكم هو فكر الإخوان المسلمين المعتدلين ، فإننا نتوقع أن يعارضه جماعات السلفيين والتحريريين ، والجناح المتطرف داخل حركة الإخوان المسلمين أنفسهم .

وأود أن أقرر هنا جملة أمور :

١ – أن اتفاق جميع الناس على أمر واحد شيء متعذر ، بل مستحيل ، حتى أنهم لم يتفقوا على أعظم الحقائق ، وهى الإيمان بالله الواحد .

ولهذا يكفى فى أمر ما أن تتفق الأغلبية .

٢ – أن الاختلاف ذاته لا يضر ، إنما الذى يضر ويدمر هو التفرق والعداوة .

ومما يسهل أمر الخلاف أن يعلم الجميع أنه واقع بمشيئة الله تعالى وحكمته ، فلا يطمح أحد فى استئصاله ، وجمع الناس كرهًا على مبدئه ، يقول القرآن ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَميعًا ، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمنينَ ﴾ (١) . ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (٢) .

أما الفصل بين المختلفين وأيهم على حق ، فموعده يوم القيامة ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيَامَة فيمَا كُنتُمْ فيه تَخْتَلفُونَ ﴾ (٣) . ﴿ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ المصيرُ ﴾ (٤) .

٣ – أن العصبية الطائفية ليست وليدة الالتزام بالإسلام ، فقد رأينا بلادًا علمانية تقوم فيها خلافات بل مذابح طائفية .

وأبرز مثل لذلك فى وطننا العربى ، لبنان ، وما يجرى على أرضه من أهوال وما وقع ويقع إلى اليوم من مجازر بشرية تشيب لها الولدان ، ولبنان علمانى قح .

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٩ . (٢) سورة هود : الآية ١١٨ .

(٣) سورة الحج : الآية ٦٩ . (٤) سورة الشورى : الآية ١٥ .

وفى خارج الوطن العربى ، نرى الهند ، وما يحدث فيها بين الهندوس والسيخ ، وبين الهندوس والمسلمين ، مما سارت بذكره الركبان ، والهند بلد علمانى عريق .

٤ – لابد إذن من البحث عن أسباب أخرى لنمو النزعة الطائفية ، ومن هذه الأسباب :

(أ) وجود عدو مشترك من مصلحته أن يفرق بين جميع الطوائف ، ويضرب بعضهم ببعض ، وهو فى النهاية الرابح ، وهى فلسفة استعمارية معروفة « فرق تسد » .

(ب) وقوع ظلم من أحد الفريقين للآخر : إما من الأكثرية القوية بعددها فتجور على حق الأقلية فى إثبات وجودها الدينى ، والتعبير عنه فى حياتها العملية . أو من الأقلية المسنودة من أطراف خارجية فتستأثر بامتيازات على حساب الأكثرية ، وتقاتل عنها .. أو تريد أن تأخذ أكثر من حقها ، وأكبر من حجمها ، على حساب الأكثرية .

(جـ) وجود أهواء ومصالح شخصية لبعض العناصر من هذا الطرف أو ذاك ، تستفيد من الصراع الظاهر والخفى ، وتصطاد فى الماء العكر ولا تبالى فى سبيل مصالحها الخاصة أن تهدم وطناً بأسره .

(د) سوء فهم الأطراف المختلفة بعضها لبعض كتحميل وزر الحوادث الفردية للطائفة كلها ، وتصديق الشائعات وتفسير الوقائع على غير حقيقتها .

(هـ) ترك زمام الأمور للمتطرفين والمتعصبين المهيجين من كلا الفريقين الذين يجعلون من الحبة قبة . وتأثير ذلك على العوام والغوغاء الذين يندفعون بعواطفهم ، ولا يفكرون بعقولهم ، ويستثارون بأدنى شىء ، وابتعاد العقلاء والحكماء عن التصدى للأمر ، بما يليق به من حكمة وأناة ، تضع الأمور فى نصابها .

(و) فقدان الصراحة فى علاج هذه الأمور ، والتركيز على المواطنة دون اهتمام بالرابطة الدينية ، جرياً وراء الكلمات الغامضة « الدين لله ، والوطن للجميع » ، فلا المسلم ، ولا المسيحى مستعد أن يترك دينه لأى شىء ولا لوطنه ، فالواجب أن تحل المشكلة الطائفية فى ضوء التوجيهات الدينية لكل من الفئتين ، وإزالة المخاوف والهواجس والرد على الأسئلة المثارة بوضوح حتى تطمئن الأنفس ، القلقة ، وتهدأ القلوب الثائرة .

(ز) من الخير لكل من المسلم والمسيحى أن يتعامل مع صاحبه وهو متمسك بقيمه الدينية ، وهى قيم أخلاقية ، وربانية وإنسانية عليا ، تلزمه بمراقبة الله فى كل علاقاته وتصرفاته .

فهذا أصلح وأنفع من التعامل فى أجواء النفاق السياسى الذى يزعم أن الدين بعيد عن الموضوع كله .

وأصلح كذلك من تنحية الدين جانبًا بالفعل ، وتعامل الجميع بوصفهم علمانيين ، بلا دين .

فالمسلم الملتزم بأحكام دينه ، المراقب لربه فى سره وعلانيته أفضل – فى علاقته بالمسيحى – من المسلم المتفلت الذى لا يعرف الله ولا يتقيه .

وكذلك المسيحى الملتزم بدينه ، المتبع لتعاليم الإنجيل الحقة ، وكلها تحض على المحبة والتسامح والإيثار ، أفضل يقينًا – فى علاقته بالمسلم – من المسيحى الذى لا يعرف من المسيحية ، إلا الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، وتعليق الصليب .

* *

OBEIKAN.COM

٧ - هَمُّ التحلل والتسيب

ليس تأخير الحديث عن هذا الهم لأنه أقل أهمية ، أو لأنه دون غيره فى ترتيب الهموم . بل لعل العكس هو الصحيح ، إذا أردنا وضع الأمور فى نصابها .

إن المراقب لما يجرى فى وطننا العربى على امتداده من المحيط إلى الخليج - وفى وطننا الإسلامى من المحيط إلى المحيط - فى العقود الأخيرة خاصة ، يجد هذه الظاهرة واضحة وضوح الشمس . ظاهرة التحلل والتسيب الأخلاقى الذى عشش وأفرخ فى مجتمعاتنا التى طالما زهيت بأنها مجتمعات أخلاقية .

وقارئ الصحف العربية لا يعدم كل يوم فضيحة من الفضائح وجريمة من أكبر الجرائم ، من نهب للمال العام - إلى لصوصية منظمة من كبار القوم (المحميين) أو (المحسوبين) إلى رشا [١] وعمولات تبلغ الملايين ، إلى احتيال وتزوير ، أو انتهاك للحرمات والقوانين ، إلى جرائم العربدة والسكر ، والفجور والعُهر ، وتناول المخدرات والسموم البيضاء ، والاتجار بها ، والإثراء من وراء تهريبها . إلى غير ذلك مما يعرفه الخاص والعام ، على أن هناك أشياء تعرف ولا تنشر وأشياء تحدث ولا تعرف فى حينها .

وهذا - من ناحية - نتيجة لسوء الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ﴿ وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ [٢] .

ومن ناحية أخرى هو سبب لها أيضًا ، فإن فساد الأخلاق يفسد الحياة كلها وهو الذى يدمر الأمم ويأتى على بنيانها من القواعد .

ورحم الله أحمد شوقى حين قال :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتمًا وعويلاً

ومثل هذا الوضع لا يجوز السكوت عليه ، لأن الزمن هنا ليس جزئًا من العلاج ، كما يقال ، بل مضى الزمن يزيد الجسم علة والطين بلة ، إذا لم نسارع بالعلاج الناجع الصحيح .

---

(١) رشا : جمع رشوة .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .

ولن نجد علاجًا لهذا الداء إلا من طب الإسلام ، وصيدلية الإسلام ، وهذا ما تؤمن به الصحوة الإسلامية ، بل ما تقوم به الصحوة بالفعل ، وما يجب على كل التيارات والمدارس الأخرى أن تعينها عليه ، لأن ثمرة نجاحه للجميع ، ومضرة إخفاقه على الجميع .

* *

● أساس التغيير المنشود :

إننا متفقون على ضرورة التغيير والإصلاح ، ولكننا مختلفون على المنهج والطريق . وقبل ذلك : على منطلق التغيير .

وإن من أكبر الأخطاء أن نحلم بالإصلاح والتغيير ، ولا نعمل له ، ولا نسعى له سعيه ، ولا نسلك إليه طريقه ، مستبينين الوجهة والغاية .

ونحسب أن الإصلاح أو التغيير يهبط علينا من السماء هبة من الله . والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ولا إصلاحًا ، ولا تنزل ملائكة يتولون أمر إصلاح البشر ، وإنما البشر هم الذين يصلحون أنفسهم .

إن التغيير يجب أن يبدأ منا أولاً ، من داخلنا .

إن قانون القرآن الصلب أن الأقوام – أو المجتمعات – لا تتغير بأمر قدرى سماوى ، بل بجهد بشرى أرضى ، وهو جهد يتجه إلى الأنفس قبل كل شيء ليغير ما بها من صفات رديئة فاسدة ، إلى صفات طيبة صالحة ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

وإذا كان شعار الماركسية : غير الاقتصاد وعلاقات الإنتاجية يتغير التاريخ، فإن شعار القرآن : غيروا أنفسكم يتغير التاريخ !

وتغيير ما بنفس الإنسان ليس بالأمر الهين السهل ، كما يتصور بعض الناس ، فليس بمجرد الوعظ والإرشاد يتغير ما بنفس الإنسان ، وليس بالأوامر العسكرية يتغير الإنسان ، ولا باللوائح الإدارية يتغير الإنسان ، ولا بالتنظيمات الشكلية يتغير الإنسان ، إنما يتغير الإنسان من داخل نفسه ، بتغيير أهدافه ومثله ومعتقداته وقيمه وتصوراته، ومفاهيمه، بإضاءة عقله ، وإحياء ضميره ،

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

OBEIKAN.COM

وإيقاظ وجدانه ، وشحذ إرادته ، وتزكية نفسه، وتهذيب سلوكه. وهذا يحتاج منا إلى إعادة بناء الإنسان فى وطننا الكبير .

* *

● إعادة بناء الإنسان :

وهذا أكبر ما يشغل الصحوة اليوم ، ويحظى باهتمامها الأول : هو إعادة بناء الإنسان العربى المسلم ، حتى يستطيع أن يقوم بدوره الكبير فى عالم الغد .

إن الإنسان فى أوطاننا قد تعرض لتخريب خطير من داخله ، تخريب جعله لا يهتم إلا بذاته دون النظر إلى الجماعة أو الوطن أو الأمة . ولا يهمه من ذاته إلا جانبها المادى ، فهو يلهث وراء المنفعة واللذة فحسب ، والمنفعة التى يسعى وراءها هى منفعته هو ، ومنفعته المادية ، والآنية أيضاً . إنه لم ير فى نفسه إلا الطين ، والحمأ المسنون ، أما نفخة الروح .. أما جوهر الإنسان .. فهو فى شغل عنه ، بل هو يكاد لا يعرفه ولا يؤمن به ، فلا يبحث عنه .

لقد كان أول ما بدأ به النبى ﷺ هو بناء الإنسان بتحريره من أباطيل الشرك ، وأهواء الجاهلية ، وترسيخ عقيدة التوحيد فى نفسه ، ومعانى الإيمان فى قلبه ، ومكارم الأخلاق فى حياته ، وتطهير رأسه من ضلال الفكر ، وإرادته من شهوات الغى ، وعلى هذا ربى الجيل المثالى الأول ، الذى امتحن فصبر وأعطى فشكر ، وثبت على السراء والضراء ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وتحمل عبء نشر الدعوة ، وإقامة الدولة ، وتربية الأمة ، وحماية الحوزة ، فما وهن لما أصابه فى سبيل الله وما ضعف ولا استكان .

وكان هذا هو مفتاح النجاح الحقيقى لكل ما حدث بعد ذلك من روائع الإنجازات .

* *

● جوهر أزمتنا أخلاقى :

إن أزمتنا الكبرى – فى جوهرها – أزمة روحية أخلاقية ، أزمة إيمان وأخلاق . ولسنا من الغفلة والسذاجة ، بحيث نجحد أن أزمتنا فى عدد من جوانبها وأبعادها ، اقتصادية وسياسية ، وإدارية وعلمية وتكنولوجية .

فهذه الجوانب والأبعاد مسلمة لا ريب فيها ، ولكن جذورها وأسبابها – فى التحليل النهائى – تعود إلى انطفاء جذوة الإيمان والأخلاق .

إن لنا عشرات السنين نشكو من استبداد الطغاة ، وطغيان المستبدين وتحكمهم فى جماهير شعوبنا كأنهم قطعان تساق ، لا آدميون يفكرون ويشعرون وفقدان المؤسسات الديمقراطية التى تحمى حريات المواطنين أمام عسف الحكومات .

ما علة هذا ؟ إنه ضعف الإيمان والأخلاق لدى الحاكمين ، ولدى المحكومين جميعًا .

إنه التأله الفرعونى ، والاستكبار الهامانى ، والبغى القارونى ، مع الوهن النفسى والخلقى الذى أصاب الناس ، ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾(١) . ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾(٢) .

إنه الوهن المتمثل فى (حب الدنيا وكراهية الموت) لدى الناس ، فكل يقول : نفسى نفسى ، ولا يريد أن يضحى ويبذل من أجل أمته .

إن تمسك الحكام بكراسيهم ، واستماتتهم فى سبيلها واستعانتهم للبقاء فيها بكل منافق ودجال ، وإن كان أجهل الناس ، وأنجس الناس ، بل ربما استعانوا بأعداء دينهم وأمتهم لتثبيتهم وتمكينهم هو الذى أضاع البلاد ، وأذل العباد .

إن معظم التمزق والتفرق الذى نعانيه بين أقطارنا وحكوماتنا ، ليس أساسه اختلاف الأفكار والسياسات ، بقدر ما هو اختلاف الأهواء والأغراض والمصالح لدى القابضين على أزمة الحكم والقيادة .

إن الديون التى تحسب الآن بعشرات المليارات فى بعض البلاد العربية ، والتى غدت أطواقًا تكبلها ، وأغلالاً تزرح تحتها ، دون أن تستفيد منها لمستقبل أجيالها ، وبناء غدها .. إنما تمت على أيدى أناس لا يراقبون الله ، ولا يخافون سوء الحساب ، ولا يبالون أن يدمروا قومهم فى سبيل بناء مصالحهم الشخصية .

إن شيوع المخدرات والسموم بين الشباب ، وشراءها بمئات الملايين فى وقت يحتاج فيه الناس إلى كل درهم وفلس ، وراءه فساد أخلاقى كبير .

---

(١) سورة هود : آية ٩٧ . (٢) سورة الزخرف : آية ٥٤ .

إن جماهير غفيرة من الناس تأكل الحرام ولا تبالى ، لا يحللون اللقمة التى تدخل أجوافهم ، وتقيم بنيانهم ، لأنهم يستوفون أجورهم ولا يعملون ، وإذا عملوا لا يتقنون . فهم يأخذون من الحياة ولا يعطون .

وآخرون يبنون أنفسهم بهدم غيرهم ، ويشيدون ثرواتهم من عرق الآخرين ودمائهم .

إن كثيراً من الخطط الفاشلة ، والقرارات الباطلة والسياسات القاتلة ، إنما دفع إليها استرضاء فئات من الناس على حساب الحق ، أو تملق آخرين ولو بخراب الوطن ، أو التخلص من حرج اليوم ولو بتميل المتاعب والخسائر كلها على الغد .

إن السباق المجنون على الاستهلاك ، وخصوصاً للسلع المستوردة ، والتباطؤ المميت فى الإنتاج ، وخصوصاً فى الزراعة والصناعة ، كل ذلك يمثل بعض ما نعانيه من أزمة الإيمان والأخلاق .

لقد غدونا – للأسف – نتكلم ولا نعمل ، ونقول ولا نفعل ، ونستورد ولا ننشىء ونستهلك ولا ننتج ، ونستقبل ولا نرسل ، ونقلد ولا نبتكر ، وباختصار : نهدم ولا نبنى ، ونميت ولا نحيى .

إن هذا يجعلنا نزداد إيمانا بأن مهمتنا الأولى يجب أن تكون تجديد الإيمان والأخلاق ، وبعث الحياة فى الجسد الهامد ، حتى يجرى فى عروقه الدم، وينهض إلى الانطلاق والعمل من جديد .

إن أمتنا فى حاجة إلى روح جديد يسرى فى كيانها ، ينشئها خلقاً آخر ، يغير فلسفتها ونظرتها إلى الحياة ، وإلى الأشياء ، ويبدل نمط حياتها الحالى المتواكل المتثائب ، إلي نمط منتج فعال .

إن المادية ، والأنانية ، والطفيلية ، والوصولية ، والانتهازية ، والنفعية وغيرها من الرذائل المدمرة ، يجب أن تطارد حتى تختفى من دنيانا .

إن منكرات الارتجالية والعفوية ، والانهزامية والمحسوبية والشللية ، وألوان الغش التجارى والثقافى والتربوى والسياسى وغيرها من الآفات التى ذاعت وشاعت يجب أن تقاوم حتى تطهر ساحتنا منها .

إن رذائل الفوضى واللامبالاة،والتواكل، والكسل ، والعجز ، والتسويف وضعف الإنتاج ، وسوء الاستهلاك ، وتدمير المال العام ، كلها يجب أن تحارب

كما يحارب الدرن والبلهارسيا وغيرها . بل هى أخطر على الأمم من كل الأمراض المتوطنة والوافدة .

* *

● إمكانات تيار الصحوة :

إن تيار الصحوة الإسلامية هو التيار الوحيد الذى يخاطب الجماهير فيُسمعها ويُفهمها . وينفذ إلى سويداء قلبها . أما التيارات الأخرى ، فهى مغلقة على ذاتها ، تخاطب نفسها ، أو على أكثر تقدير – يخاطب بعضها بعضاً ، أما الجماهير العريقة فهى تناديهم من مكان بعيد ، فهى لهذا لا تسمعهم وإن سمعتهم لا تفهمهم ، وإن فهمتهم لا تستجيب لهم .

تيار الصحوة الإسلامية هو وحده القادر – إذا تهيأت له الظروف – أن ينفخ فى الأمة روح الحياة ، وأن يمنحها من الحوافز والقدرات ما يعجز عنه أى تيار آخر ، ينتمى إلى اليمين أو اليسار .

إن هذا التيار هو وحده القادر على أن يقود مسيرة أمتنا فى معاركها السبع ، ويمدها بالوقود اللازم فى غدها الحافل بالمخاوف والآمال .

تيار الصحوة هو القادر على تجديد الإيمان فى حياة الأمة ، وتهيئة المناخ الصالح لتكوين الفرد المؤمن بربه ورقابته ومعيته ، المؤمن بلقائه وحسابه وجزائه، المؤمن بأن عمل الذرة من الخير أو الشر مرصود عند الله ، مجزى عليه فى الدنيا والآخرة ، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

لقد قرأنا فى التاريخ ، وشاهدنا فى الواقع ، ماذا يصنعه الإيمان بالإنسان حين تخالط بشاشته قلبه ، ويسرى نوره بين جوانحه .

إنه يتغير تغيراً كلياً ، من حيث اهتمامه وسلوكه وقدرته على البذل والعطاء ، إن الإيمان يحرك سواكنه ، ويستثير كوامنه ، ومن ناحية أخرى يحميه من شهوات نفسه ، وإغراءات الشياطين من حوله . ولهذا نرى الشاب إذا مسته نفحة الإيمان ، يلتزم – مع إقامة شعائر العبادة – بصدق القول ، وإتقان العمل ، وطهارة المسلك ، واجتناب ما حرم الله ، فيتوب عن الزنى ، والشرب وتعاطى المخدرات ونحوها ، حتى السيجارة لا يتناولها .

وهذا الالتزام هو أكبر ما يخيف أعداء هذه الأمة من الصحوة ، ويفزعهم من انتشارها وقوتها .

إننا فى أشد الحاجة إلى طاقات هائلة ، وقدرات فائقة ، حتى نستطيع أن نلحق بركب العالم المعاصر ، ونعوض ما فاتنا فى القرون الماضية التى استيقظ فيها الغرب ونمنا ، وتقدم وتخلفنا .

ولن نستطيع ذلك إلا بطاقات معنوية يقدم إنساننا فيها شيئًا فوق العادى وفوق المألوف .

ونحن نعلم أن إنساننا اليوم لا يؤدى ما يؤديه الإنسان العادى فى عالمنا ولا يقوم بالواجب المألوف المطلوب من مثله فى دنيانا !

فكيف يمكننا أن نغير إنساننا بحيث يلحق إنسان العصر فى العطاء ثم يسبقه ويتجاوزه ؟؟ .

إن هذا لا يتم إلا بحوافز ومحركات معنوية غير معتادة ، حوافز أكبر من الأجر الإضافى ، والترقية إلى منصب أعلى ، وما شابه ذلك .

إن هذا لا يكون إلا بإيمان دينى ، يفجر فى الإنسان المؤمن طاقاته المكنونة ويثير همته الكامنة ، ويحرك قدراته المبدعة .

ومن المعروف للدارسين المتعمقين أن فى الإنسان طاقات كامنة مخبوءة تحتاج إلي مفجر يظهر فاعليتها ، ويخرجها من عالم القوة إلى عالم الفعل .

ويمكن للإنسان إذا وجد هذا الحافز ، وعاش لذاك الهدف أن يعطى أضعاف ما يعطيه الإنسان النمطى .

إن القرآن الكريم يشير إلى أنه يمكنه بإيمانه وإرادته أن يعمل بطاقة عشرة من الآخرين . اقرأ معى هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾(١) .

وهذه المضاعفة فى الطاقة لا تقتصر على المعارك العسكرية ، كما هو منطوق الآية ، بل يشمل كل المعارك ، ومنها معارك البناء والتنمية ، بشرط أن يوجد القائد المحرض ، والمؤمنون المسلحون بالإرادة والصبر .

إن الأمة فى حاجة إلى تعبئة معنوية هائلة ، وإلى استنفار عام للبذل

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٦ .

والجهاد من أجل البناء والنماء والعزة ، وتيار الصحوة هو المرشح للقيام بتلك التعبئة وهذا الاستنفار ، وهذا ما لا ينازع فيه أحد من العقلاء .

إجماع كل التيارات على ضرورة التغيير وأهمية العامل الدينى :

إن كل الأدباء والمفكرين الغيورين ، من حملة القلم ، ودعاة الإصلاح – ممن يمثلون شتى الاتجاهات والمدارس من يمين ويسار – مجمعون على أن أمتنا فى مأزق ، وأن وطننا فى خطر ، وأن على الجميع أن يتحرك للعمل والإنقاذ ، وأنه لا بد من تغيير حقيقى ، نسترد به الثقة بالنفس ، والأمل فى الغد ، ونستعيد لأمتنا إنسانها الغائب ، أو المغيب ، ونبنى من جديد شخصيته التى حطمتها الأيام السود .

أكتفى هنا بسطور قوية مما كتبه الأديب الكبير نجيب محفوظ فى (الأهرام) تحت عنوان (وجهة نظر) فقد كتب بتاريخ ٩ رمضان ١٤٠٧ هـ (٧ / ٥ / ١٩٨٧ م) تحت عنوان (الشعب والمعركة) يقول :

« نحن فى مأزق حضارى تتمثل مظاهره فى اقتصاد مريض وأخلاق متردية وصراع سياسى منذر بالخطر إلى ما يحدق بنا من نذر شر يتطاير شررها من الشرق والغرب . والحكومة تبذل ما تملك من جهد يتمثل حتى الآن فى خطتها الخمسية الأولى ويوشك أن يتمثل فى خطتها الثانية . ولكن أين الشعب ودوره فى هذه المعركة التى يتوقف على نتيجتها مصيره ؟ لا أكون مغاليًا ولا متشائمًا إذا قلت : إن التحدى القائم ما زال أشد من الجهد المبذول وإننا يجب أن نواجهه بإرادة بشرية مصممة وشاملة . مدرعة بالصبر والقوة والاستمرارية .

أمامنا عدو رجيم ولابد أن نلقاه بجيش كامل العدة والعدد . عالى الهمة بروحه المعنوية وحماسه الوطنى وعزيمته الصلبة . لا يكفى أن تناضل فى الميدان الحكومة والأحزاب . بل لابد من تعبئة عامة تجند كل مواطن وتدعوه إلى العمل معتمدة على دوافعه الذاتية واقتناعه الباطنى . والمسألة الحقيقية هى كيف نجند هذا الجيش وكيف ندعوه إلى العمل لكى تطمئن ضمائرنا إلى أننا فى الموقف المصيرى قد فعلنا ما ينبغى لنا فعله دون تكاسل أو تهاون أو تفريط .

ولكى يتحمل كل فرد مسؤوليته ويخرج من عزلته واغترابه فعلينا أن نخاطبه باللغة التى تستجيب لها نفسه ، كما استجابت فى مواقف مماثلة فى تاريخه العريق . لغة غير لغة التصريحات والدعاية ولكنها تتجسد فى القدوة المثالية والجدية الصادقة واحترام حقوق الإنسان والمشاركة الفعلية فى الفكر والقرار » .

وبعد أسبوع عاد إلى نفس الموضوع تحت عنوان (الطوفان والسفينة) يقول :

« قال الشباب : إنك تحثنى على تسجيل اسمى فى جدول الانتخابات باعتباره حقًا وواجبًا على فى آن ، فما معنى الانتخابات وما معنى الحقوق وما معنى الواجبات ؟ كلام فى كلام فى كلام ، إنى يائس تمامًا ، متشائم حتى النهاية ، لا ثقة لى فى قول أو فعل أو رجل أو حاضر أو تاريخ ، تعلمت تعليمًا ناقصًا ، وألحقت بعمل لا خير فيه لنفسى ولا للناس أو هو بطالة مقنعة كما تقولون بصدق ، ولى مرتب لا يشبع ولا يغنى ، ولا يحقق لى الاستقلال عن أسرتى المطحونة ، وأنا محروم من مطالب الحياة الأساسية كالحب والزواج والمسكن ، وأعيش بلا أمل فى عالم كئيب محاصرًا بالقذارة والضجيج والانتهازيين واللصوص من جهة وبأصحاب الملايين العابثين من جهة أخرى ، فى مجتمع ظالم باغ ينادى بلسان كاذب بسيادة القانون والعدل ويمارس التفرقة بين أبنائه بالمحسوبية والامتيازات ، هذا هو حالنا نحن الشبان ولا يستثنى منه إلا من سانده الحظ بأب غنى أو أم غنية أو من وجد فى الخارج فرصة عمل تغير موازينه ، فلا تحدثنى عن الانتخابات والحقوق والواجبات والغد الموعود بالأمل والفلاح » .

والحق أنه لولا كثرة سماعى لهذه الآراء أو هذه الأنات المستعرة ما رضيت أن أسجلها وأنشرها ، ولكن إخفاءها ليس من الأمانة فى شىء ولا هو من الحكمة أيضًا . لعله صوت جيل لا صوت فرد ، ولعله تعليق تلقائى على فترة من الحضارة أنهكتها المآسى ، والحق أيضًا أنه – الشباب – لانغماسه فى أزمته قد فقد النظرة الشاملة وظلم كثيرًا من العمل البناء والاجتهاد الصادق وطمس بوارق تلوح فى الأفق ولكن من ذا الذى لا يعذر شابًا خسر أهم مقومات الحياة والسعادة ؟!

ولنتساءل مخلصين كيف تطمئن أمة ، وفى جوفها هذا القدر من اليأس والغضب والتجهم ؟ كيف تتقاعد ساعة واحدة عن إصلاح شأنها وتقويم سلوكها ، والتفانى فى العمل والإنتاج والإصلاح ؟ إنه سباق بين طوفان وبين سفينة لا تبنى إلا بسواعد الإيمان والعلم والعمل .

وأقرب من قرأت لهم فى هذا المجال الكاتب الصحفى المعروف الأستاذ لطفى الخولى . المشرف على تحرير صفحة الحوار القوى فى جريدة (الأهرام) ، وأحد كبار الماركسيين فى الوطن العربى ، وذلك فى رده على فضيلة الدكتور / عبد المنعم النمر أثناء المعركة التى دارت رحاها حول الأفكار الغريبة التى أثارها د . محمد خلف الله فيما يتعلق بقومية الرسالة الإسلامية أو عالميتها .

والذى يهمنا تسجيله هنا هذه الفقرة التى ذكرها الأستاذ لطفى ، فى رده حين قال بصريح العبارة :

« لا نتصور أن هناك مستقبلاً ممكنًا للتغيير والتقدم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والتكنولوجى ، فى مصر أو فى أى بلد عربى آخر ، خارج إطار الإيمان الدينى . ذلك أن الإيمان يعمر قلوب وعقول شعبنًا إلى درجة الإجماع تقريبًا ، وبالتالى فهو يحكم السلوك الوطنى والقومى وحركته الجماعية. ومن هنا فإن هذا الإيمان – علميًا – هو المخزون العظيم الذى تتجمع وتنصهر فيه القوة البشرية – المادية ، المنوط بها إحداث التغيير التاريخى المطلوب سياسيًا واجتماعيًا . وهكذا فإنه حتى التغيير بالمنظور الاشتراكى أو بالمنظور القومى غير ممكن عمليًا وعلميًا خارج إطار هذا الإيمان الدينى للشعب ، وإلا كان علينا أن نستورد شعبًا من الخارج يقوم بعملية التغيير الثورى . هذا ليس عملاً مستحيلاً وحسب وإنما هو بالدقة عبث وجهالة وجنون » (الأهرام ٤ / ١١ / ١٩٨٧ م) .

ومهما يكن من تفسير جماعة اليسار لمعنى الإيمان الدينى ومضمونه فقولهم هذا يدل على أن التيارات كلها فى مصر – وكذلك العالم العربى والإسلامى – لا تستطيع بحال أن تنكر أو تتجاهل قوة التيار الإيمانى فى تحريك الطاقات وقدرته على التغيير والبناء ، وبخاصة بناء الإنسان .

* * *

مستقبل الصحوة

إن المزية الكبرى لهذه الصحوة أنها تجسد الاتجاه الوحيد المعبر بصدق عن ضمير هذه الأمة ، وعن هويتها الحضارية والعقائدية ، الممثل لشخصيتها التاريخية المصور لطموحاتها وآمالها ، النابعة من ذاتها وروحها ، وكينونتها الحقيقية .

فقد أثبت استقراء الواقع كما أثبتت قراءة التاريخ : أن روح هذه الأمة هو الإسلام وأنها لا تعيش إلا به ، ولا تنطلق إلا منه ، ولا تبذل النفس والنفيس إلا من أجله ، ولا تجتمع كلمتها إلا عليه .

ومن ثم لم تحقق نصراً يذكر فى تاريخها القريب والبعيد ، ولا فى حاضرها المشهود ، إلا تحت لوائه .

وكم جربت هذه الأمة من دعوات ، وسمعت من صيحات ، تريد أن تقودها بغير الإسلام ولغير الإسلام ، فلم تثمر إلا الشتات والضياع والخذلان .

إن الفلسفات والدعوات الوافدة من الغرب والشرق ، والحلول المستوردة من اليمين واليسار ، لم تحقق إلا الإخفاق والفشل فى كل الميادين ، عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية .

وعيب هذه الفلسفات والأفكار والأنظمة ، أنها دخيلة علينا ، غريبة عن روحنا وتكويننا العقدى والفكرى ، فهى عاجزة أن تخاطب (جوّانية) إنساننا المسلم وأن تقوده من مسلماته العقلية ، وأن تفجر طاقاته المكنونة ، التى يستطيع بها أن يغير مجرى الأحداث ، كما سجل التاريخ لأسلافه من قبل .

لن تتحرك هذه الأمة وتصنع العجائب إذا أنشدتها معلقة امرئ القيس ، أو قصيدة عمرو بن كلثوم .

ولن تتحرك وتصنع العجائب إذا قرأت عليها مؤلفات جان جاك روسو ، أو كارل ماركس أو جون ديوى ، أو ماوتس تونج ، أو جان بول سارتر .

إنما تتحرك حقًا وتصنع العجائب إذا حركتها بالقرآن ، وقدتها بالإيمان ،

ورفعت أمامها راية الإسلام ، وذكرتها بإمامها وزعيمها محمد عليه الصلاة والسلام .

وما لنا نذهب بعيداً ؟ وقد جربنا ورأينا ، وشاهدنا وشهدنا : أنهم يوم نادوا بشعارات القومية والاشتراكية والتقدمية وما شابهها ، لم يستطيعوا أن يغيّروا من واقع الأمة شيئاً ذا بال ، وما حققوه من مكاسب أو إنجازات – فى نظر البعض على الأقل – خسرت الأمة أضعافه فى جوانبها الأخرى ، مادية ومعنوية، وما زالت الأمة تعانى من ثماره المرة ، وخسائره غير المباشرة ، التى تظهر آثارها فى حياتنا العامة يوماً بعد اليوم .

* *

● واجبنا نحو الصحوة :

إن الصحوة الإسلامية هى أمل الغد لأمتنا وتستطيع أن تقود سفينة الإنقاذ بقوة وجدارة إذا ما ساعدناها نحن العرب والمسلمين . على أداء رسالتها ، وساعدت هى نفسها أيضاً . وذلك بما يلى :

أ – أن تكون صحوة لنا جميعاً ، لا أن يقف فريق منا معها ، وفريق يقاومها ، ونقضى العمر فى جذب وشد ، دون أن ننجز شيئاً كبيراً .

يجب أن نقف كلنا وراء الصحوة ،وأن يزول هذا التفريق بين (مسلمين) و (إسلاميين) ، مسلمين بوراثة العقيدة ، وإسلاميين بالتوجه والولاء . يجب أن نكون كلنا إسلاميين . حتى غير المسلمين ، يمكن أن يكونوا كذلك فيؤمنوا بحتمية الحل الإسلامى ، وإن لم يؤمنوا بحقيقة الاعتقاد الإسلامى .

وأحب أن أنبه هنا على تمييز مهم ، هو الفرق بين الصحوة الإسلامية والحركة الإسلامية .

فالحركة الإسلامية لها مدلول معين يعنى ارتباطاً وتنظيماً وقيادة وجندية. أما الصحوة فهى تيار عام يشمل كل العاملين للإسلام ، جماعات وأفراداً ، ويضم معهم كل المهتمين والغيورين على الإسلام ، وعلى أمته ، وعلى أوطانه ، وإن لم يضمهم عنوان أو لافتة ، أو لم يدخلوا فى إطار هيئة أو جمعية.

الصحوة تيار تلقائى ، لا ينسب إلى جماعة بعينها ، ولا إلى مدرسة فكرية بعينها ، ولا إلى اتجاه سياسى بعينه ، بل يضم الجميع فى رحابه الفيحاء .

إنه التيار الذى لا يربط بين آحاده وفئاته إلا حب الإسلام ، والاعتزاز به ، والحرص على خير أمته وإعلاء كلمته ، والتمكين له فى الأرض ، عقيدة وفكراً وسلوكاً وتشريعاً وحضارة ونظاماً للحياة .

(ب) أن نوفر لها مناخ الحرية والأمان ، لتعمل بلا خوف ، ولا تربص ، وبغير قيود وأغلال ، ودون حواجز وأسوار .

ففى مناخ الحرية تنطلق كلمة الإيمان الهادية ، لتخاطب العقول فتعى ، والقلوب فتهدى ، وتستحث العزائم فتنهض ، والقوى فتعمل وتنتج .

(جـ) يجب ألا نتعامل مع الصحوة من عقدة الخوف أن تنحرف كما انحرف رجال الدين فى الغرب المسيحى ، أو كما انحرف رجال الملك فى الشرق الإسلامى ، وكأننا نحملها أوزار انحراف التاريخ كله فى العالم كله ! .

علينا أن نعطيها الفرصة لقيادة الأمة فى معركة التحرير ، ومعركة البناء وسائر معاركها السبع ، كما أعطيت للاتجاهات والحلول المستوردة الأخرى يمينية ويسارية ، ليبرالية وثورية .

فالحل الوحيد الذى لم يأخذ فرصته بعد النهضة هو الحل الإسلامى الذى تنادى به الصحوة ، مع أنه الحل الذى يمثل القاعدة الجماهيرية فى شعوبنا باعتراف جميع المراقبين والدارسين .

* *

● واجب الصحوة نحو نفسها :

(د) أما الصحوة نفسها فنريد منها أن تنزل إلى الشعب ، إلى الشارع العربى المسلم وتتفاعل معه ، تعلم الجاهل ، وتقوى الضعيف ، وتعالج السقيم، وتقوم المنحرف وتربى الجيل ، وتأخذ بيد الضال إلى الهداية ، والعاصى إلى التوبة ، ولا تتعالى على المجتمع وهى جزء منه ، وتنظر إليه على أنه هالك ، وهى وحدها الناجية ففى الحديث الصحيح « إذا سمعتم الرجل يقول : هلك

الناس ، فهو أهلكهـــم » أى أقربهم إلى الهـــلاك لغروره وعجبه ، واحتقاره لغيره .

(هـ) أن تصحح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام الخاصة والعامة ، سواء مفاهيم (الجمود) الموروثة من عهود التخلف ، أم مفاهيم (الجحود) التى أدخلها الاستعمار الثقافى ، وأن تقوم بدورها فى (التوعية) تمهيداً لدورها فى (التربية) وهما متكاملان .

(و) أن تجعل أكبر همها : أن تتسامح ولا تتعصب ، وأن تجمع ولا تفرق، وتدرك أن العالم من حولها شرقًا وغربًا ، ينسى خلافاته ، ويتقارب على كل مستوى : على المستوى الدينى ، تتقارب المذاهب النصرانية بين بعضها وبعض ، وتتقارب اليهودية والنصرانية برغم العداوة التاريخية بينهما ، وقد رأينا وثيقة الفاتيكان فى (تبرئة اليهود من دم المسيح) . وعلى المستوى السياسى نرى سياسة الوفاق بين العملاقين ، رغم خلافهما الأيديولوجى .

فلا يجوز أن تشتغل فصائل الصحوة بالمعارك الجانبية ، والمسائل الهامشية التى يتعذر أن يتفق الناس فيها على رأى واحد ، ويهتموا بالقضايا المصيرية والمسائل الكبرى ، ويتبنوا قاعدة المنار الذهبية : (نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه) .

ولا مانع من تعدد مدارس الصحوة وفصائلها ، على أن يكون تعدد تخصص وتنوع ، لا تعدد تناقض وتضاد .

(ز) أن تكون الصحوة بناء لا هدم ، وأن يكون همها إضاءة الشموع لا سب الظلام ، وإماطة الأذى عن الطريق لا لعن من وضعه فيه ، فالنبى (ﷺ) لم يبعث لعانًا ، ولكن بعث رحمة ، حتى أن النبى (ﷺ) قال لمن سب الشيطان: « لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إن قلت ذلك انتفخ حتى يصير كالجبل ، ويقول : صرعته بقوتى ، ولكن قل : بسم الله ، فإنه يتصاغر حتى يصبح كالذباب » .

(ح) أن تفتح باب الحوار مع كل التيارات الوطنية المخالفة ، مؤكدة

لمواضع الاتفاق ، متفاهمة فى نقاط الاختلاف ، داعية – كما أمر الله تعالى – بالحكمة لا بالسفاهة ، وبالموعظة الحسنة ، لا بالحملة العنيفة ، وبالجدال بالتى هى أحسن ، لا بالتى هى أخشن .

(ط) ألا تشتغل بالفروع عن الأصول ، ولا بالجزئيات عن الكليات ، ولا بالشكل عن الجوهر ، ولا بالنوافل عن الفرائض ، وأن تتعمق فى (فقه مراتب الأعمال) حتى لا تختل النسب الشرعيـــة بين التكاليف ، فتقدم ما حقه التأخر ، وتؤخر ما حقه التقديم ، وتعظم الهين من الأمور ، وتهون العظيم وقد قال الإمام الغزالى بحق : « فقد الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور » . كما قرر علماؤنا : أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، ولا يقبل الفروع ممن ضيع الأصول .

(ى) أن تراعى سنن الله فى خلقه ، وهى سنن ثابتة لا تتبدل ، صارمة لا تجامل . فلا تلتمس حصاداً بغير زرع ، ولا تستعجل ثمرة قبل أوان نضجها ، وتعلم أن لكل شيء فى الكون قانونه المطرد ، فمن صادم قوانين الكون صدمته ، ومن غالبها غلبته ، ومن عمل من خلالها مهتدياً بهدى الله كان نصيبه الفلاح فى الأولى والآخرة .

* *

● معارك فكرية يجب أن تتوقف :

وعلينا إذا كنا جادين فى البحث عن الخلاص ، أن ننهى الخلافات المعلقة دون حسم أو تحديد .

ولكى نختصر الطريق على الباحثين والمناقشين ، أود أن أعلن بكل وضوح : أن هناك قضايا فكرية طال عليها الأمد ، وعقدت لها المؤتمرات والحلقات والندوات ، وأعتقد أن الرؤيا فيها قد وضحت ، وينبغى أن ينتهى الاختلاف فيها ، ويتم الاتفاق على أصولها .

يجب أن نفض الاشتباك – بلغة العسكرية – بين أمور طالما حدث الاشتباك بينها نتيجة لغموض المصطلحات ، وعدم تحديد المفاهيم ، أو رغبة قوم فى بقاء هذا الاشتباك أو النزاع مستمراً دون كلمة فاصلة .

* * *

من هذه الأمور :

١ - الاشتباك بين الدين والعلم :

فهذه معركة نشأت فى غير أرضنا ، ولم توجد عندنا يومًا ، وكما قلنا ونقول دائمًا : إن الدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين ، ولا يوجد داعية ولا فقيه ولا أحد ينتمى إلى الصحوة الإسلامية ، يقول بالاستغناء عن العلم ، أو إغلاق الباب فى وجه التكنولوجيا ، بل يرون ذلك فريضة دينية ، وضرورة حيوية ، فلا مبرر لافتعال خصومةٍ أو معركةٍ حول هذا الموضوع المنتهى .

* *

٢ - الاشتباك بين الأصالة والمعاصرة :

ولا داعى لأن أكرر ما قلته حول (السلفية والتجديد) فالمفهومان غير متعارضين أصلاً ، إلا إذا جعلنا (الأصالة) بمعنى (الانغلاق) على الماضى وحده غافلين عن متاعب الحاضر ، وآمال المستقبل ، رافضين كل تجديد أو اجتهاد ، أو اقتباس للحكمة من أى وعاء .

أو جعلنا (المعاصرة) بمعنى (الانفلات) من تراثنا كله : الملزم وغير الملزم ، الثابت والمتغير ، الإلهى والبشرى ، إن جاز لنا أن نسمى الجانب الإلهى (القرآن والسنة) تراثًا ! .

على أن هذا لا يعنى أن الأمر سهل ، فلا بد من بذل جهد كبير من أهل العلم والفكر المخلصين ، لتمييز الإلهى من البشرى فى التراث ، والملزم من غير الملزم ، والثابت من المتغير فيه ، وكذلك النافع من غير النافع من المعاصر ، والملائم لنا من غير الملائم . ليس كل ما فى (العصر) خيرًا ، فكم فيه (سلبيات) ضارة بل قاتلة .

* *

٣ - الاشتباك بين العروبة والإسلام :

فالعروبة فى الواقع عميقة الصلة بالإسلام ، فالعربية لسان قرآنه وسنته ، ولغة عبادته وثقافته ، والعروبة وعاؤه ، وأرض العرب معقله وحصنه ، بها مقدساته ومساجده التى لا تشد الرحال إلا إليها ، والعرب هم حملة رسالة

OBEIKAN.COM

الإسلام إلى العالم والصحابة كلهم عرب ، ومن لم يكن عربى العرق منهم أصبح عربى اللسان والقلب (ومن تكلم العربية فهو عربى) وقد جاء فى الأثر: إذا عز العرب عز الإسلام وإذا ذل العرب ذل الإسلام .

العروبة إذن عميقة الصلة بالإسلام ، كذلك الإسلام عميق الصلة بالعروبة، ولا تعارض بين العروبة والإسلام ، إلا إذا كانت العروبة (علمانية) وهى التى لا تقبل الإسلام حكما ، أو كان الإسلام (شعوبيًا) وهو الذى يعادى العرب . والواقع أن الإسلام يجعل للعرب مكانة خاصة ويعرِّب مشاعر المسلمين من غير العرب ، إن لم يعرب ألسنتهم وثقافتهم .

* * *

● مفاهيم يجب أن تتمايز :

يكمل ما ذكرناه أمر آخر لا بد منه ، وهو التفريق الحاسم بين مفاهيم لا يجوز أن تختلط أو تتشابه ، بل يجب أن تتمايز وتتباين ، فأحد طرفيها يجب أن يكون فى موضع القبول ، والآخر يجب أن يكون فى موضع الرفض .

* *

من ذلك :

١ - التفريق الحاسم بين العلمية والعلمانية :

فالعلمية فريضة شرعية ، وضرورة قومية ، وتأكيدها واجب الدعاة والمربين والمفكرين ، وأجهزة التوجيه كلها ، أما العلمانية فهى مرفوضة بكل معيار : معيار الدين ، أو معيار الديمقراطية ، أو معيار الدستور ، أو معيار الأصالة أو معيار المصلحة ، وتفصيل ذلك يطول [١] .

* *

٢ - التفريق الحاسم بين التفاعل الثقافى والغزو الثقافى :

فالتفاعل الثقافى مشروع ، بل مطلوب ، ولكن التفاعل إنما يكون من جانبين بين ندين ، يعطى كل منهما ويأخذ ، واعيًا مختارًا ، غير مكره ، ولا

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا : (الإسلام والعلمانية) فصل تحديد المعايير . وفصل : نعم للعلمية ، و(لا) للعلمانية .

OBEIKAN.COM

واقع تحت تأثير خاص . فهو يأخذ ما يحتاج إليه ، وفق معايير مدروسة ، ويدع ما يدع تبعًا لمنطق معلوم ، محتفظًا بهويته وخصائصه ، غير مفرط فى قيمه ومبادئه ومسلماته المشخصة لذاته .

أما الغزو فهو من طرف قوى لطرف ضعيف ، أى من غالب قاهر ، لمغلوب مقهور مبهور بقوة غالبه ، فهو يأخذ منه ولا يعطيه ، ويأخذ ما لا يحتاج إليه بل يأخذ ما لا ينفعه ، وإن كان قد ينفع صاحبه ، بل كثيرًا ما يأخذ الضار ويدع النافع .

* *

٣ - التفريق الحاسم بين الدولة الإسلامية والدولة الدينية :

فالدولة الإسلامية كما جاء بها الإسلام ، وكما عرفها تاريخ المسلمين - دولة مدنية ، تقوم السلطة بها على البيعة والاختيار والشورى ، والحاكم فيها وكيل عن الأمة أو أجير لها ، ومن حق الأمة - ممثلة فى أهل الحل والعقد فيها - أن تحاسبه وتراقبه ، وتأمره وتنهاه ، وتقومه إن اعوج ، وإلا عزلته . ومن حق كل مسلم ، بل كل مواطن ، أن ينكر على رئيس الدولة نفسه إذا رآه اقترف منكرًا ، أو ضيع معروفًا . بل على الشعب أن يعلن الثورة عليه إذا رأى كفرًا بواحًا عنده فيه من الله برهان .

أما الدولة الدينية (الثيوقراطية) التى عرفها الغرب فى العصور الوسطى والتى يحكمها رجال الدين ، الذين يتحكمون فى رقاب الناس - وضمائرهم أيضًا ، باسم (الحق الإلهى) فما حلوه فى الأرض فهو محلول فى السماء ، وما ربطوه فى الأرض فهو مربوط فى السماء ! فهى مرفوضة فى الإسلام ، وليس فى الإسلام رجال دين بالمعنى الكهنوتى ، إنما فيه علماء دين ، يستطيع كل واحد أن يكون منهم بالتعلم والدراسة ، وليس لهم سلطان على ضمائر الناس ، ودخائل قلوبهم ، وهم لا يزيدون عن غيرهم من الناس فى الحقوق ، بل كثيرًا ما يهضمون ويظلمون ، ومن ثم نعلنها صريحة : نعم .. للدولة الإسلامية ، ولا ، ثم لا .. للدولة الدينية (الثيوقراطية) .

* *

● مخاوف :

إن الصحوة هى معقد الأمل ، ومناط الرجاء لهذه الأمة ، بعد فشل الحلول المستوردة ليبرالية وثورية ، ولكننى لا أكتمكم أنى أخاف عليها ، كما يخاف الوالد على ولده ، فى فترة المراهقة وأوائل الشباب .

أنا لا أخاف على الصحوة من القوى الأجنبيـــة المتربصة ، وهى لها بالمرصاد ، ولا القوى الداخلية المتسلطة ، وهى غالبًا ما تعمل لحساب تلك ، شعرت أم لم تشعر .

إنما أخاف على الصحوة من نفسها ، إذا لم تع دورها ، ولم تتنبه لما يحيط بها ، وما يخطط لها .

أجل ، أخاف عليها من عدة تيارات ، تتنازعها فى داخلها ، بأن يغلب أحد هذه التيارات ، وهو مستعبد أو يؤدى تنازعها فيما بينها إلى إضعافها جميعًا . هذه التيارات هى بإجمال شديد (أرجو أن أوفق إلى تفصيله فى كتاب آخر) :

١ – تيار الجمود والتزمت ، الذى يرفض الاجتهاد والتجديد ، والانفتاح على العالم ، ويبقى على كل قديم ، وإن لم يعد لزمننا صالحًا ، ويقاوم كل جديد ، وإن كانت الحاجة إليه ماسة .. تيار (الجمود الفكرى : المذهبى والحَرْفى) .

٢ – تيار الغلو والتنطع الذى يحجر ما وسع الله ، ويشدد فى غير موضع التشديد ، ويقوم على التعسير لا التيسير ، والتنفير لا التبشير .. تيار (التطرف السلوكى) .

٣ – تيار التهور والاستعجال والاصطدام بالسلطة قبل الأوان ، وبلا ضرورة تيار (العنف العسكرى) .

٤ – تيار الاستعلاء على المجتمع ، والعزلة عنه ، والانسحاب من ميدان الإصلاح والتغيير ، تيار (التكفير والهجرة) .

٥ – تيار التعصب الضيق ، الذى تنغلق به كل جماعة على نفسها ، مسيئة الظن بغيرها تيار (الانغلاق أو التشرذم الحزبى) .

٦ – تيار الاستغراق فى السياسة المحلية الآنية ، والاشتغال عن جوانب أخرى فى غاية الأهمية مثل :

OBEIKAN.COM

- الجانب الدعوى (التوعية على أوسع نطاق) .
- الجانب التربوى (تكوين الجيل المسلم المنشود) .
- الجانب الاجتماعى الذى برع فيه دعاة التنصير .

وأعنى هنا تيار (الانهماك السياسى) .

* * *

● الصحوة تصحح نفسها :

ورغم هذه المخاوف أقول : إن الصحوة بفضل الله قادرة على أن تصحح خطأها وتنفى خبثها ، وثقتى كبيرة أن تيار الوسطية الذى يعمل فى دأب وصبر ، وفى توازن واعتدال ، وبوعى وتخطيط ، ستكون له الغلبة ، والهيمنة على كل التيارات الأخرى المخوفة .

وقد لمست بنفسى شيئًا من ذلك أوائل السبعينات ، مع شباب الجماعات الإسلامية فى الجامعات المصرية ، فقد كان الخط السائد هو خط التشديد والتشنج والحرفية ، ولكن بعد لقاء الشباب الدعاة المعروفين من أهل العلم والورع والاعتدال ، غلبت الوسطية على التطرف ، وغدا هذا التيار هو الغالب إلى اليوم .

والخلاصة أن تيار الصحوة الإسلامية هو تيار الغد المرجو ، والمستقبل المأمول ، وخصوصاً أن عموده الفقرى هم الشباب ، وهم ذخيرة الغد .

ورغم مخاوفنا على الصحوة فإن آمالنا فيها أقوى ، وتيار الوسطية فيها هو الغالب السائد ، وهو المرتجى المأمول ، وكل المراقبين مجمعون على قدرة هذا التيار على تغيير الإنسان من داخله ، وإنشائه خلقًا جديداً ، يقوم على الطهارة والبذل والعطاء ، لا على النفعية ، أو العبث ، أو التهريج ، أو اتباع الشهوات ، والسير فى مواكب النفاق .

أكتفى هنا بشهادة (د . سعد الدين إبراهيم) رغم تشدده فى نقد التيار الإسلامى الأصولى – ممثلاً فى الإخوان المسلمين – وموقفه من المسألة الاجتماعية ، فهو لم يسعه إلا أن يعترف بقدرة هذا التيار – وحده – على تعبئة الأمة ، وتجنيد طاقاتها من أجل أهدافها الكبرى ، حيث يؤكد فى خواتيم دراسته فى ندوة (التراث وتحديات العصر) وفى مقام تذكير الماركسيين

OBEIKAN.COM